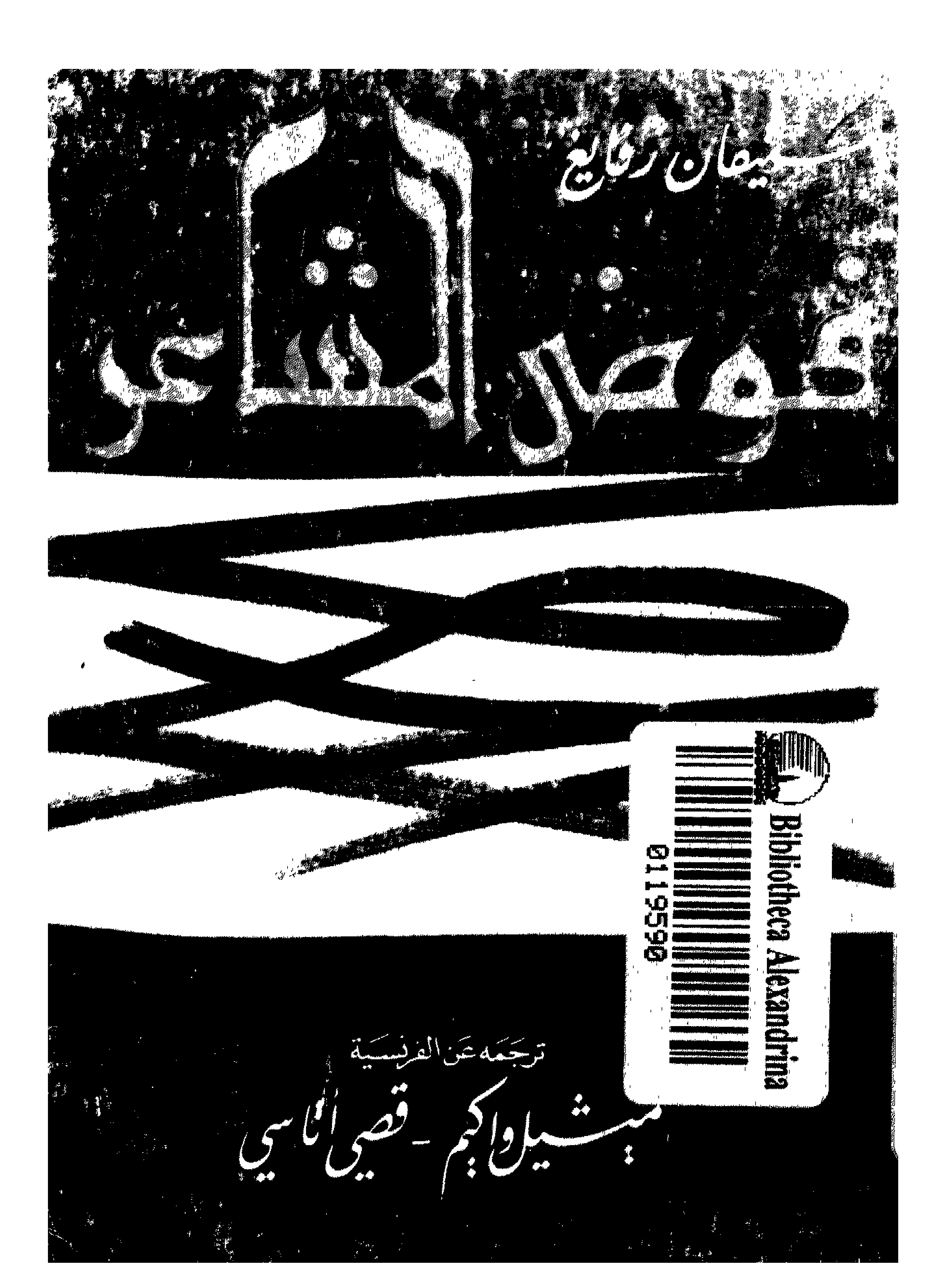
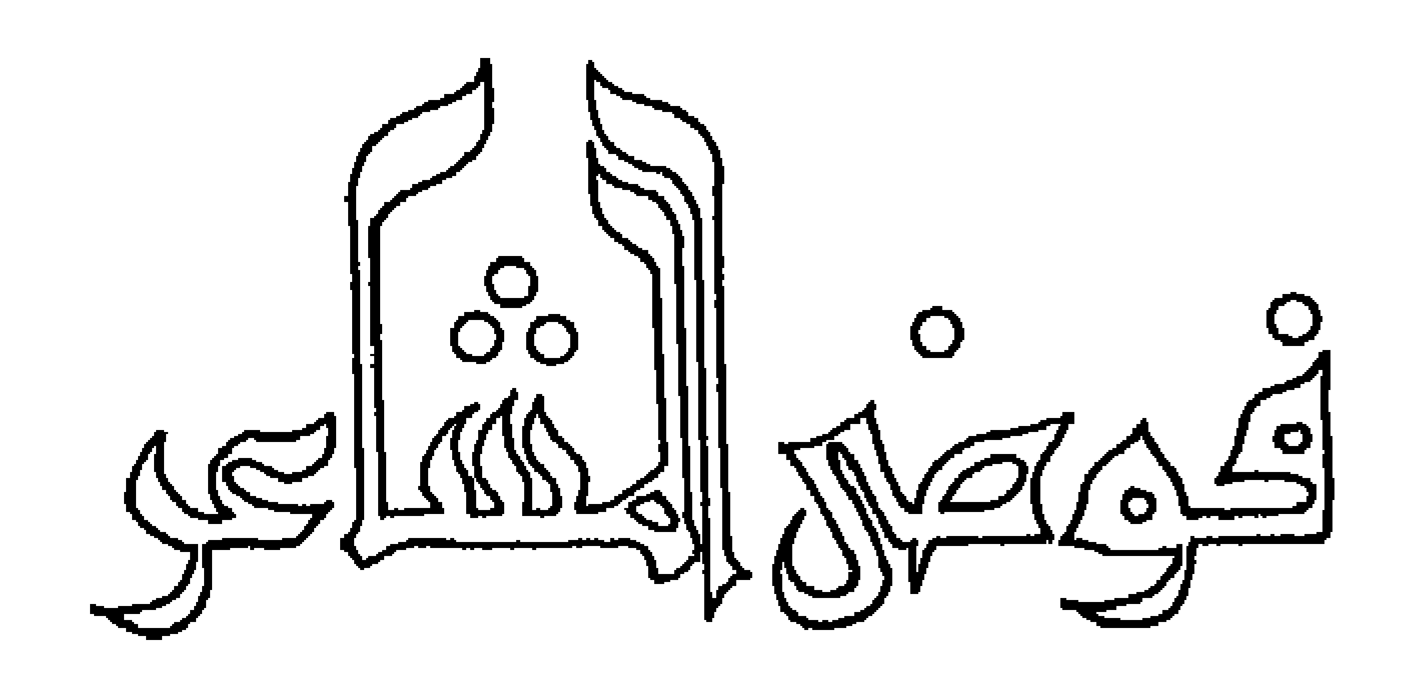

ستيفان زفايغ
فوضى المشاعر
ترجمه عن الفرنسية
ميشيل واكيم - قصي أتاسي



دمشق ـــ أوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار ,
TLASDAR

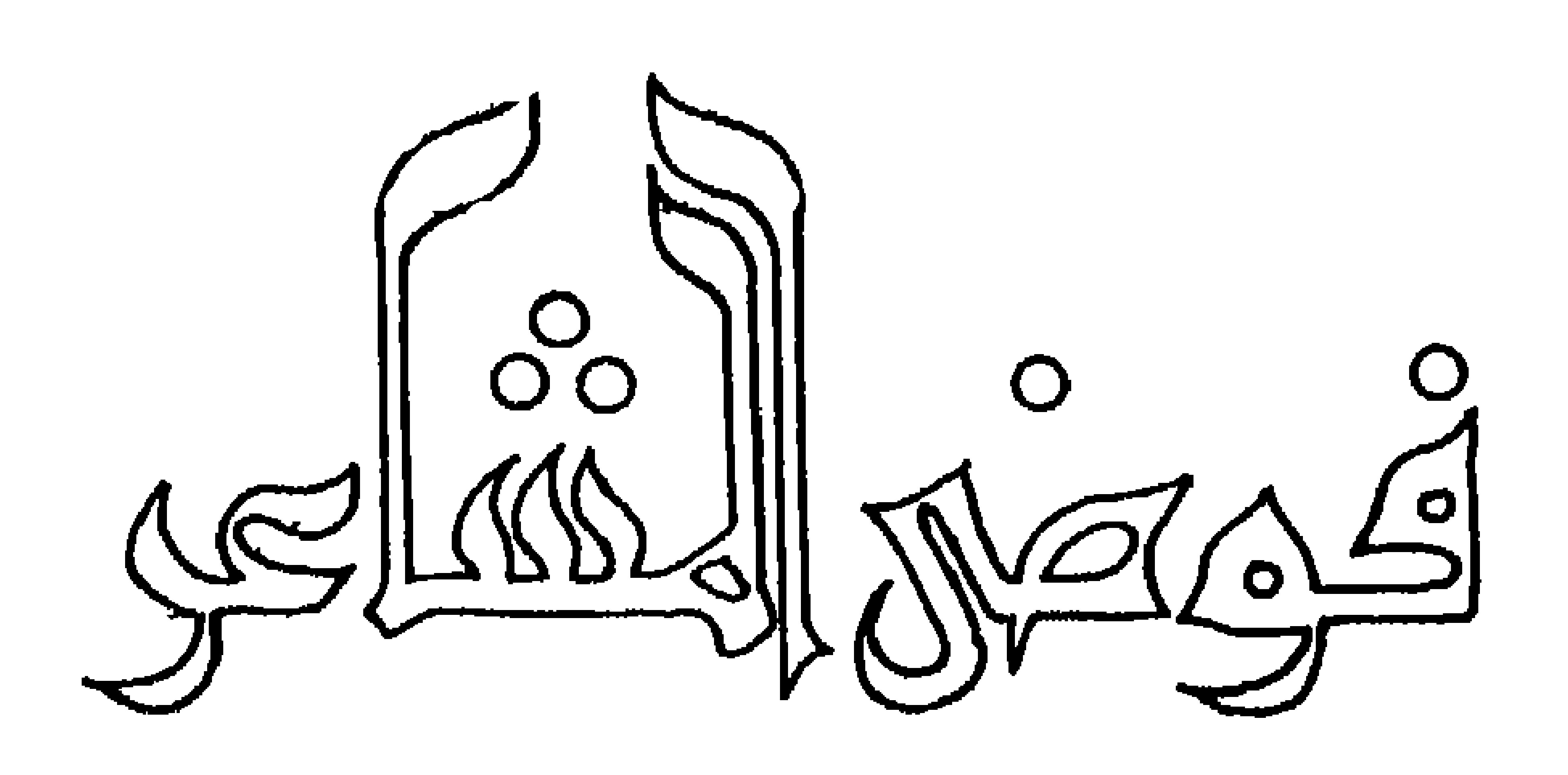
ريع الدار مخصص

لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري


فوضى المشاعر

الطبعة الأولى
١٩٨٨

ستيفان زفايغ



ترجمه عن الفرنسية

ميشيل واكيم - قصي أتاسي

عنوان الكتاب باللغة الفرنسية

Stefan Zweig

La confusion des sentiments

TRADUIT DE L'ALLEMAND
PAR
ALZIR HELLA ET OLIVIER BOURNAC

المؤلف في سطور

ستيفان زفايغ

١٨٨١ ـ ١٩٤٢

* كاتب نمساوي يكتب بالألمانية .
* ولد في فيينا . واشترك مع (جول رومان) في مجموعة من الأعمال الأدبية .
* من مؤلفاته مسرحية (بيت على شاطىء البحر) وروايات شهيرة أهمها : آموك ـ ٢٤ ساعة في حياة امرأة ـ الشفقة الخطيرة .
  واشتهر بدراساته لحياة عدد من الأعلام المشاهير : تولستوي ـ كازانوفا ـ نيتشه ـ ستندال ـ هولدرلين ـ كلايست ـ بلزاك ـ دستويفسكي ـ رومان رولان وغيرهم .
* لم يطق أن يرى أوروبا وقد اكتسحتها همجية الفاشية فرحل إلى البرازيل ... ثم صمم على الانتحار مع زوجته فكتب رسالة يودع فيها أصدقاءه ويشرح لهم سبب انتحاره ويشكر البرازيل ، البلد المضياف ، على حسن الضيافة ... ثم نفذ ستيفان زفايغ وزوجته ما عزما عليه عام ١٩٤٢ .

هذا الكتاب

- يقول رومان رولان: «إن رواية (فوضى المشاعر) في نظري أعظم ما كتبه ستيفان زفايغ. وهي أكثر مؤلفاته مأساوية وإنسانية».

- في هذه الروايــة ينصب اهتمام الكــاتب على ظاهرتين: الانفتاح على عالم الفكر ـــ ومعانـاة جحيم الأهواء.

- إنها حكاية رجل يعكف على ماضيه فيسترجع تلك اللحظة الحاسمة في حياته حينما هجر حياة المجون وهو طالب في الجامعة إلى عالم الفكر ليغرق فيه جسداً وروحاً.

○ وهو يلتقي أحد أساتذته الجامعيين الذي يشهد مع زوجته ولادة هذا الشغف المجنون فيعيش الثلاثة تجربة مرة تنتهي بالدمار ... بالمأساة.

لقد كانت مبادرة لطيفة تلك التي قام بها تلاميذي وزملائي في الكلية حينما قدموا لي على سبيل التكريم وعلى نحو احتفالي كتاباً أنيق التغليف في عيد ميلادي الستيني الموافق للذكرى الثلاثين لتسلمي منصب الأستاذية ؛ وهو الكتاب الذي تناول فيه بعض اللغويين سيرة حياتي . والحق أن الكتاب كان ترجمة صادقة لسيرتي إذ لم يغادر أية مقالة كتبتها أو خطبة ألقيتها إلا أتى على ذكرها . هذا ولم يغفل هذا التأريخ الجاد لسيرة حياتي أية دراسة عادية ظهرت لي في حوليات شتى مخصصة للبحث العلمي فنبشها من (مقبرة) الأوراق الصفر ؛ بل إن كل مراحل تطور حياتي حتى الساعة الراهنة قد بُعثت فيها الحياة بوضوح وصفاء وتنسيق وكأنها درجات سلّم مجلوة .

والحق أن من باب الجحود أن أقـــول: إن هذه التفصيلات والجزئيات الحميمة لم تبعث السرور في نفسي؛ فلقد دبت الحياة ـــ عبر هذا الكتاب المنهجي المنظم ـــ فيما ظننت أنه قد ضاع واندثر من حيـاتي. هذا؛ ولا بد من الاعتراف بأني ـــ أنا العجوز الآن ـــ قد تأملت صفحات هذا الكتاب فشعرت بزهو لا يقل عن ذلك الزهو الذي شعرت به أيام التلمذة وأنا أتلقى أول مرة شهادة أساتذتي بأني ضليع في العلوم وذو إرادة وعزم على العمل.

ومع ذلك كان لا بد لي أن أبتسم بعد أن تصفحت الصفحات المئتين لهذا الكتاب الجاد ونظرت باهتمام في هذه المرآة التي أرى ثقافتي في صفحتها. فهل كانت تعكس حقاً حياتي على وجه الدقة ؟ وهل كانت حياتي تتطور وتنمو على نحو منتظم متصل بتقدم ونجاح منذ أيامي الأولى وحتى الآن على ما صورها كاتب سيرتي حينما سردها بتسلسل منهجي معتمداً الوثائق المطبوعة ؟ لقد شعرت بذلك الشعور نفسه

الـذي انتابنـي حينما سمعت أول مرة صوتي مسجـلاً على أسطوانة ؛ إذ أنكرته أول الأمر... لقد كان الصوت صوتي دون شك ؛ ولكنه لم يكن ذلك الصوت الذي أدركه وأعيه كما أدرك تدفق دمي في عروقي وكما أعي حقيقة ذاتي .

وهكذا ثبت لي بتجربتي الخاصة ـــ أنا الذي سخرت حياتي كاملة في وصف الرجال عبر أعمالهم وتجسيد بناهم الفكرية ـــ أن من الصعب النفاذ إلى جوهر النواة الحقيقية للإنسان وسبر أغوار خلاياه التي هي مهد كل ولادة ونمو . نعم نحن نعيش ما لا يحصى من اللحظات الزمنية ؛ ومع هذا فليس هناك إلا لحظة واحدة تعمل على تفجير عالمنا الداخلي ، تلك اللحظة التي وصفها (ستندال) ... إنها الزهرة المتفتحة في الأعماق وقد ارتوت بشتى ألوان الغذاء فحققت وجودها بسرعة البرق الخاطف . إنها لحظـة سحريـة شبيهة بلحظـة الإخصاب ، خفية خفاءها ، لا تُرى ولا تلمس ولا تدرك ... إنها السر الذي لا يظهر إلا مرة واحدة . إنها تستعصي على

حساب أي قانون رياضي كما تستعصي على احتمالات أية معادلة كيميائية ؛ ومن النادر أن يهتدي إليها حدْس الغريزة .

إن كتاب سيرتي هذا لا يتناول أسرار دخولي عالم الفكر : ولهذا كان لا بد أن أبتسم . نعم كان كل ما فيه صحيحاً صادقاً ؛ ولكن الخلل فيه أنه أهمل (الجوهر) . إنه يصفني ولكنه لم يصل إلى أعماق ذاتي . هو يتحدث عني دون أن يكشف عن كينونتي الحقة . ولقد أتى على ذكر مئتين من أسماء الأعلام ولم يشر إلى ذلك (العلَم) الذي فجر لديّ طاقاتي الإبداعية ؛ أعني به الرجل الذي قرر مصيري والذي يدفع بي اليوم إلى استحضار أيام شبابي مدفوعاً بحماسة شديدة . كان ذلك الكتاب يتحدث عن رجال كثيرين ما عدا ذلك الرجل الذي علمني قيمة الكلمة وأنعش لغتي بروحه ... وهكذا سرعان ما شعرت بأني مسؤول عن عملية الطمس الجبانة هذه . لقد أمضيت حياتي وأنا أرسم صوراً وملامح بشرية ، وأنفض غبار القرون عن شخصيات عديدة لأجلوها

وأبرزها أمام عينيْ جيلنا المعاصر ؛ ولكن لم يخطر ببالي أن أتناول ذلك الرجل الذي كان دائماً معي وفي قلبي . ولهذا أود لو فديت بدمي ذكرى عزيزي الراحل الذي طوته يد المنون منذ أمد طويل — كي يعزيني بحضوره وحديثه ، أنا الذي أمشي اليوم إلى الشيخوخة . إن ما أريده هو أن أضيف صفحة حميمة مجهولة إلى الصفحات المنشورة المتداولة فأبوح بحقيقة أيام شبابي حباً بذاك الرجل وإكراماً له .

○

وها أنذا أتصفح مرة أخرى هذا الكتاب الذي يدّعي أنه يصور حياتي فأراني مضطراً إلى الابتسام كرة ثانية ؛ إذ كيف يريد هؤلاء الذين اختاروا منطلقاً غير صحيح أن يعرفوا حقيقة كياني ؟ لقد وقعوا في الخطأ منذ البداية ! فهذا هو أحد رفاقي في المدرسة يبتغي لي الخير ويكنّ لي كما أكن له كل ود فيتبرع بأن يتخيل أن شغفي بالآداب الكلاسيكية هو

الذي كان يميزني من بين زملائي في المدرسة الثانوية . إن لك ذاكرة ضعيفة أيها (الناصح) الأمين ! ألا فاعلم أن كل ما يمتّ إلى الكلاسيكية بصلة هو عندي ضرب من العبودية لا أقوى على تحمله ويثير لديّ الغضب بل الحنق . وكل ما في الأمر أني ــ أنا ابن مدير الثانوية ــ كنت أرى أينما توجهت في مدينتي الصغيرة من شمال ألمانيا (الثقافة) الرائجة على أنها وسيلة لكسب العيش؛ ولقد كرهت منذ طفولتي فقه اللغة وعلومها . إن الطبيعة ــ وهي تحقق مهمتها السامية في الحفاظ على دفقة الإبداع ــ تغرس في نفوس الأبناء كرهاً بل نفوراً من الأذواق الموروثة عن الآباء والأجداد . إن الطبيعة لا ترضى بتراث سهل سائغ يتناقله جيل عن جيل نسخاً وتكراراً . إنها دائماً تقيم ضرباً من التناقض بين أجيال البشر ... ثم ما تلبث بعد (دورة) شاقة خصيبة أن تعود بالأحفاد لتضعهم على درب الأسلاف .

وبينما كان أبي ينظر إلى العلوم نظرة التقديس كانت

شخصيتي الناشئة لا ترى في تلك العلوم سوى تفاهات لا غَناء فيها؛ وبينما كان أبي يرى في الكلاسيكية قدوة ومثالاً يحتذى كنت لا أرى فيها إلا نماذج تعليمية مقيتة. كنت أحتقر الكتب وهي تحيط بي من كل جانب. كنت أتمرد على كل أشكال الثقافة التراثية المنقولة حينما كان أبي يدفع بي نحو عالم الفكر؟ وهكذا لا تستغرب إذا قلت لك إني لم أصل إلى الشهادة الثانوية إلا بشق النفس، وإني رفضت بحماسة واندفاع استكمال دراستي. كنت أريد أن أصبح ضابطاً أو بحاراً أو مهندساً. والحق أني لم أكن مدفوعاً إلى حب هذه المهن بدوافع جبرية قاهرة؛ وإنما كان كرهي للأوراق الصفر وللنزعة التعليمية في العلوم هو الذي جعلني أوثر المهن العملية على مهنة التدريس. ومع هذا فقد ألح أبي ــ مدفوعاً بتبجيله المتشدد لكل ما يخص الجامعة ــ على رغبته في دخولي إحدى الكليات. هذا ولم أحصل إلا على (تنازل) واحد فحسب إذ سمح لي بدراسة اللغة الانكليزية بديلاً لدراسة اللغات القديمة وعلومها. وقد كان ذلك حلاً سيئاً هجيناً قبلت به في نهاية

المطاف مبيتاً النية على أني أستطيع بسهولة فيما بعد وبفضل معرفتي لهذه اللغة البحرية أن أحترف مهنة البحار التي كنت أرغب فيها أشد الرغبة .

أما الغلط الكبير الذي تصرح به هذه (السيرة) فهو أنني اكتسبت في الفصل الأول من دراستي في جامعة برلين بفضل أساتذة أكفياء مبادىء فقه اللغة وعلومها ؛ وواقع الحال أن شغفي بالحرية إلى أبعد الحدود قد جعلني شديد الجهل بدروسي وأساتذتي . ومنذ أن زرت قاعة الدرس في الجامعة أول مرة تلك الزيارة السريعة سرعان ما شعرت بالإرهاق من ذلك الجو الخانق ومن طريقة إلقاء الأستاذ الرتيبة المبهرجة التي تشبه طريقة واعظ في الكنيسة . وهذا ما رمى بي في أحضان الإعياء والضجر فبذلت جهدي كي أغالب النوم فوق المقعد . إنها كتلك المدرسة التي كنت أظن أني سعدت بالهرب منها ؛ إنها تلك القاعة المدرسية نفسها تعود وقد انضاف إليها منبر مرتفع ليدور فيها ضرب من النقد الصبياني المحشو بالسفاسف ...

نعم كنت مضطراً أن أرى في كل ذلك حباتٍ من الرمل تنساب من بين شفتين كسولتين لذلك (الواعظ) الأمين الذي كان يحاضر هناك؛ نعم كانت كلماته التي يقرؤها من دفتره مستهلكة رتيبة وهي تتساقط قطرة قطرة في ذلك الجو الثقيل وهو متعب من جراء خدمته المديدة.

إن ذلك التخوف الذي يحس به الطالب من أنه قد وقع وسط مشرحة تشرّح فيها جثث الأفكار حيث تلعب الأيدي العابثة وهي تشرح الميت... إن هذا التخوف قد تجدد في نفسي على نحو فظيع وأنا في مخبر (المحنطات) اللغوية التي أصبحت منذ زمن طويل من سقط المتاع. وهكذا بعد هذا الدرس الذي صبرت عليه بشق النفس توترت في نفسي غريزة الدفاع عن الذات فخرجت إلى شوارع المدينة، مدينة برلين التي كانت تفجؤك آنذاك بنموها وازدهارها وهي مفعمة بفحولة خصيبة نشيطة حيث تتفجر الحرارة من حجارتها وشوارعها لتثير على نحو لا يقاوم لدى كل امرىء ضرباً من

التدفق المحموم الذي يشبه بحدّته البدائية الوحشية شبهاً قوياً تلك النشوة الخاصة بفحولتي التي كنت وعيتها منذ عهد قريب .

كنا كلانا ــ أنا وبرلين ــ نغادر بسرعة نمط حياة البورجوازية الصغيرة الرتيبة المحدودة وقد أسلمنا قيادنا قبل الأوان لمجموعة مختلطة من الطاقات والإمكانات ... نعم كانت برلين وكنت أنا الفتى اليافع ونحن نستعد للدخول على العالم ... كنا نهتز بمزيد من الحركة والنشاط ونفاد الصبر اهتزاز المولد الكهربائي . وهكذا لم أفهم برلين وأحبها حق الفهم والحب إلا في تلك الفترة ؛ فلقد كانت كل خلية في كياني تطمح إلى التوسع والنمو الفجائي شأني شأن تلك المدينة الطافحة بالحياة الدافئة المعسولة ؛ فأنى لتلك الفتوة العارمة المتحفزة أن تستطيع التفتح على أحسن وجه إلا في ذلك القلب الخافق الملتهب لتلك (الأنثى) العملاقة ؟ تلك المدينة المتحفزة المفعمة بالقوة . نعم سرعان ما استولت هذه المدينة عليّ فرحت أغوص

إلى أعماقها فوصلت إلى صميم دمائها. كانت فضوليتي تجوب بي سريعاً في أثناء جسدها الحجري المفعم بالحرارة؛ فمنذ الصباح وحتى المساء كنت أذرع الشوارع وأرتاد البحيرات في الضواحي وأكتشف كل ما كان فيها من مخبآت؛ والحق أن ذلك الاندفاع العارم الذي صرفني عن الانشغال بدروسي ورمى بي في أحضان المغامرات المتطلعة أبداً إلى أحاسيس جديدة ــ إن ذلك الاندفاع كان ضرباً من الوسواس. ولكن هذه الألوان من الإفراط والمبالغة لم أكن أمارسها إلا استجابة لنوازع طبيعتي الخاصة؛ فمنذ طفولتي لم تكن لي القدرة على الاهتمام بأمور شتى في الحين نفسه. كنت لا أهتم مطلقاً إلا بما يهمني ويشغل بالي؛ ولقد كان نشاطي ينتشر دائماً وحيثما كنت في اتجاه واحد. وها أنذا اليوم أتعلق في كل ما أعمل بأية قضية فأشد نفسي إليها بحيث لا أغادرها قبل أن أحس في فمي طعم نسغها ومذاق لبّها.

وهكذا في برلين هذه، صار الإحساس بالحرية لديّ

نشوة طاغية لا أطيق معها الصبر على أسر الدروس العابرة في الكلية ولا على البقاء وراء جدران غرفتي الخاصة. كنت أرى أن كل ما لا يحمل إلي ضرباً من المغامرة هو عبث لا طائل وراءه! وها هو ذا الشاب الريفي الذي انعتق منذ حين من ربقة المدرسة الثانوية ومازال غراً جاهلاً... يمتطي صهوات (خيله) كي يكتسب سمة الرجال من ذوي الشأن. نعم رحت أعاشر مجموعة من الطلاب مجتهداً في أن أضفي على شخصيتي الخجولة حقاً نوعاً من الزهو والعبوس اللذين يميزان الطلاب من ذوي الوجوه الجادة؛ وما كادت تنقضي ثمانية أيام على تتلمذي لديهم حتى رحت أمارس دور الشبان المختالين المزهوين في المدن الألمانية الكبرى فتعلمت بسرعة مذهلة عبث رواد المقاهي الدائمين وكسلهم الخامل.

وطبيعي أن هذا الفصل الخاص بـ(الفحولة) كان فيه نصيب للمرأة بل (للأنثى) على حد تعبير لغة الطلاب الصفيقة الوقحة؛ وهنا لا بد من الإشارة إلى أني كنت حينذاك

شاباً باهر الجمال؛ فقامتي مديدة رشيقة ووجنتاي سمراوان من أثر شمس البحر، وحركاتي مرنة لطيفة. كنت أبدو مغامراً متفوقاً برصيدي أمام أولئك الشاحبين من ذوي الوجوه اليابسة كأسماك جففها الهواء... والذين كانوا مثلنا يقومون كل يوم أحد بالبحث عن فريسة في صالات الرقص التي كانت آنذاك بعيدة عن العمران. وكان نصيبي ذات مرة خادمة ميسورة شقراء شقرة السنابل، بيضاء بياض الحليب وقد أثارها الرقص فصحبتها إلى غرفتي بعض الوقت قبل أن ينتهي يوم عطلتها. وذات مرة كان نصيبي فتاة يهودية صغيرة عصبية طائشة تعمل بائعة للجوارب؛ كانت تلك الفتاة فريسة سهلة المنال، وكنت أتركها لرفاقي أغلب الأحيان.

كنت أجد في هذه الانتصارات السهلة غير المتوقعة إحساساً بالجدّة يبعث النشوة لديّ، أنا الذي لم أكن حتى الأمس القريب إلا طالباً خجولاً. ولقد زاد هذا النجاح من جرأتي فلم أعد أرى في الشارع إلا ميداناً للصيد المكرس لهذه

المغامرات العشوائية التي لم تكن إلا ضرباً من الرياضة . وذات يوم بينما كنت أطارد فتاة جميلة وجدت نفسي بغتة تحت (أروقة الزيزفون) أمام مبنى الجامعة فضحكت على الرغم مني حينما تذكرت أني لم أتجاوز عتبة هذا المكان المهيب منذ زمن بعيد . ودخلت ذلك المبنى بنوع من التحدي مع صديق لي من طينتي ... دفعنا الباب فرأينا مشهداً مضحكاً لا يصدَّق ... فهناك مئة وخمسون جسماً قد انحنت منها الظهور على المقاعد كأنهم النساخون ، وهم يرتلون الصلاة برفقة شيخ ذي لحية بيضاء. وسرعان ما أغلقت الباب ضارباً صفحاً عن تلك الألوان من البلاغة الكئيبة ورجعت مع رفيقي باعتزاز إلى الممشى المغمور بضوء الشمس .

والحق أنه ليس هناك شاب قد بدد أيامه بحماقة وجنون كما بددتها أنا في أثناء تلك الشهور ... إذ لم أقرأ أي كتاب ، ولم أتفوه بأية كلمة جادة ، ولم تخطر ببالي أية فكرة ذات قيمة . كنت أهرب هرباً غريزياً من أية بؤرة ثقافية كي يتاح لي أن

أستشعر على نحو قوي في جسدي الذي لا يهمني سواه مذاق كل جديد، وأذوق طعم المتع التي كانت محرمة عليّ. ولعل هذا اللون من الاستمتاع المثمل بالطاقات الذاتية مضافاً إليه ذلك السخط على النفس لتضييعها الوقت وهدره شيء مما يقتضيه شباب طاغ استسلم بغتة لأهوائه؛ ومع هذا فإن ذلك الهوس الذي امتلكني قد راح يجعل من كسلي الشنيع خطراً يتهددني. وكان من الممكن أن أنزلق إلى الأبد في هوة الخمول أو الغباء لو لم تتح لي المصادفة من ينتشلني وأنا على شفا هاوية الانهيار.

إن هذه المصادفة التي أراها اليوم مصادفة سعيدة بدافع الامتنان لها قد كانت يوم استدعي أبي إلى برلين على حين غرة لحضور مؤتمر لمديري المدارس في الوزارة يدوم يوماً واحداً. ولقد استغل والدي ــ وهو المربي المحترف ــ هذه الفرصة ليطلع على أحوالي دون أن يخطرني بمقدمه فيفاجئني في وقت لم أكن أتوقع فيه مجيئه ألبتة. ولقد تحقق له ما أراد.

كنت ذلك المساء ـــ على عادتي ـــ في غرفتي البسيطة المتواضعة التي أخذ جزء منها على أنه مطبخ مشترك مع صاحبة البيت ؛ وقد فصلت الغرفة عن المطبخ بستارة ... كنت إذن مع امرأة شابة في جلسة حميمة دافئة حين قرع الباب بغتة. وخيل إلي أنه أحد رفاقي فزمجرت مستاء وقلت : « لا أستطيع أن أستقبل أحداً » . وبعد برهة وجيزة توالت الضربات على الباب تنبيء بنفاد صبر واضح . لبست سروالي وأنا في حالة شديدة من الغضب كي أصرف دون مجاملة ذلك (المزعج) الوقح ... ثم وضعت قميصي على كتفي وأنا حافي القدمين وفتحت الباب بحركة عنيفة ... لأتعرف في ظلام الدهليز (شبح) والدي ...' فكانت صدمة صاعقة كمن يتلقى لكمة على صدغه .

ولم أميز أول الأمر شيئاً من صورة وجهه في الظلام سوى زجاج نظارته اللامع ؛ ولكن رؤيتي هذا (الشبح) كانت كافية لكي تجمد الشتيمة التي كانت جاهزة على شفتي وكأن شوكة

قد اعترضت حلقي فلبثت برهة وأنا مخبول مذهول . ويا لها من لحظة رهيبة ! لقد كان علي أن أتوسل إليه أن ينتظر بعض الوقت في المطبخ ريثما أعيد ترتيب الأمور في غرفتي . نعم لم أميز وجهه بوضوح ... ولكني شعرت بأنه قد فهم كل شيء إذ عرفت ذلك من صمته ومن طريقته في دخول المطبخ دون أن يمد إلي يده ، ومن وقوفه وراء الستارة بحركة تدل على غاية النفور والضيق . وهناك أمام الموقد الذي تفوح منه رائحة القهوة الساخنة واللفت كان على الرجل العجوز أن ينتظر عشر دقائق . كانت لدي رهيبة مخجلة فكيف كانت لديه ؟! عشر دقائق ريثما أعمل على إخراج الفتاة من السرير وإلباسها ثيابها على عجل ودفعها إلى الخارج مارة بالقرب من والدي الذي كان مرغماً على الإصغاء إلى كل ما يحدث . لقد سمع على نحو واضح وقع أقدامها وخفقان الستارة المهتزة بمرورها حينما كانت الفتاة تختفي على عجل ... ثم إني لم أكن أستطيع إخراج العجوز من مخبئه المهين إذ كان علي أن أصلح تلك الفوضى

المفضوحة في السرير ... ثم رحت أنادي والدي وأنا على حالة من الخجل لم أعانِ لها مثيلاً طوال حياتي .

ولقد نجح والدي في تلك الساعة المنحوسة في أن يملك نفسه ؛ وما زلت حتى اليوم مديناً له بما صنع . وأنا كلما فكرت فيه الآن بعد أن طواه الموت صددت نفسي عن أن أنظر إليه نظرة التلميذ الذي يسره أن يرى أستاذه بعين الاحتقار على أنه آلة لتصحيح الوظائف أو متحذلق مدّع مولع بالجزئيات والتفصيلات وتوجيه الملاحظات ... كلا إني أتذكر دائماً صورة وجهه في ذلك الموقف الإنساني الرائع لدى دخوله وهو صامت من خلفي تلك الغرفة بجوها الثقيل على الرغم من اشمئزازه العميق وقد ملك زمام نفسه . كانت قبعته في يده مع قفازه ؛ وقد أراد بحركة عفوية أن يضعهما في مكانٍ ما ؛ ولكنه أومأ بحركة تنم عن النفور وكأنه لا يرضى لأي عضو من جسده أن يلمس ذلك (الدنس) ... ولقد قدمت له مقعداً فلم يبال وإنما أتى بما يوحي برفضه ملامسة أي شيء من أشياء ذلك

(المكان) ... وبعد أن لبث برهة واقفاً جامداً وقد لوى طرفه نزع نظارته ومسحها بشدة؛ وتلك ــ كعهدي به ــ علامة ضيق شديد. ورأيت بوضوح كيف مسح العجوز عينيه بظهر يده قبل أن يعيد نظارته إليهما؛ لقد كان خجلاً مني كما كنت خجلاً منه ... ولم نجد كلانا ما نقول. كنت خائفاً في أعماقي أن يبدأني بموعظة بليغة منمقة بصوته الجهوري الذي كنت أنفر منه وأسخر به؛ ولكنه ظل صامتاً متجنباً النظر إليّ. ثم توجه إلى الرفوف المتداعية التي تضم كتبي المدرسية وفتح بعضها فاقتنع من أول نظرة بأني لم ألمسها ولحظ أن معظمها مازال مختوماً ثم سألني قائلاً: «أين دفاتر دروسك؟». وكان هذا السؤال أول ما فاه به. مددت يدي إليه بدفاتري وأنا أرتجف لأني كنت على يقين من أني لم أدوّن فيها إلا درساً وحيداً ... ثم تصفح صفحتيْ الدرس متجاوزاً إياهما ووضع الدفاتر على الطاولة دون أن يأتي بما يوحي بأنه غاضب ... ثم جلس على أحد المقاعد ورمقني بنظرة حادة جادة وسألني بلهجة خالية من اللوم أو التأنيب:

ـــ طيب ! والآن ما رأيك في كل هذا ؟ وما عاقبته ؟

ولقد جمّدني هذا السؤال الهادىء في مكاني ؛ وكنت متحفزاً للمقاومة بكل ما لديّ : فلو أنه أنبني لكنت اتخذت من اللف والدوران سلاحاً ، ولو أنه عمد إلى التوسل الموجع المحزن لما أعرته انتباهاً ؛ ولكنه حطم بسؤاله الموضوعي أركان كبريائي ... وهكذا كانت رصانته الجادة تقتضي مني رصانة مقابلة ، وهدوءه الإرادي المصطنع يجب أن يقابل بالتـوقير وباستقبال يخلو من الحقد أو العداء . وأنا لا أكاد أتذكر الآن جوابي له ؛ ولقد نسيت كذلك الحوار الذي دار فيما بيننا ... فهناك هزات مباغتة وحالات من الانفعال المفاجىء إذا عبرنا عنها في حينها فقد يخلو تعبيرنـا عنها من الموضوعيـة ؛ أمـا (الكلام) الذي تبوح به عيون أربع ويصدر على نحو تلقائي من احتدام فجائي في الأحاسيس فلا أصدق منه ولا أبلغ .

لقد كان ذلك الحوار هو الحوار الوحيد الذي يجري بيني وبين أبي والذي لم أتردد معه في الاستجابة لرغبته فتركت

له اتخاذ القرار المناسب إذ نصحني بمغادرة برلين والتوجه إلى جامعة صغيرة أتابع فيها دراستي في الفصل الدرسي القادم. وقال لي على سبيل التعزية إنه على ثقة من أنني سوف أعوض بهمتي وعزيمتي ما فاتني في الماضي؛ ولقد تأثرت بهذه الثقة واستحضرت في تلك اللحظة كل ضروب الإساءات التي كنت قد مارستها في شبابي في حق ذلك الشيخ العجوز المتمسك بالتقاليد الجامدة. كنت مضطراً إلى العض على شفتي كي أمنع الدموع المحرقة من أن تسيل من عيني؛ ولا شك في أنه كان يعاني مثل ما أعاني؛ فلقد أمسك بغتة يدي بيده المرتعشة وشد عليها ... ثم سرعان ما خرج. هذا ولم أجرؤ على اللحاق به فلبثت منفعلاً مضطرباً ومسحت بالمنديل شفتي الدامية التي كنت قد جرحتها بأسناني وأنا أضغطها بشدة كي أبقى محتفظاً برباطة الجأش !.

كانت تلك أول هزة أعانيها وأنا في التاسعة عشرة من عمري آنذاك: فلقد هدم أبي دون اللجوء إلى التعنيف واللوم

ذلك القصر الورقي المبهرج الذي شيدته على مدى أشهر ثلاثة وأنا أحاول التشبه بالرجال وتقليد الطلاب في (صفاقتهم) وغرورهم بأنفسهم. وهكذا شعرت بأني قوي قادر بفضل الاستفزاز الذي امتحنت به إرادتي... مما أدى بي إلى هجر كل ألوان المتع الدنيئة إذ كنت أتحرق بصبر فارغ إلى امتحان إمكاناتي في ميدان الفكر، تلك الإمكانات التي كنت أهدرها وأبددها حتى الآن. ولقد تملكني الشعور الجامح بالحاجة إلى الجدّية والاعتدال والانضباط والتقشف فنذرت نفسي للدراسة في هذه الفترة منقطعاً إليها انقطاع الرهبان وأدركت أني كنت أجهل تلك النشوة الرفيعة التي يهبني إياها العلم وأنا على يقين من أن المغامرة والمخاطرة في عالم الفكر السامي هما دائماً في متناول الإنسان المندفع المتحفّز.

○

كانت المدينة الصغيرة التي اخترتها بالاتفاق مع أبي

لأمضي فيها الفصل الدراسي التالي في وسط ألمانيا . أما شهرتها الجامعية فلا تلائم أية ملاءمة منظر مجموعة البيوت المتواضعة المحيطة بمباني الكليات ... وبعد أن غادرت المحطة وأودعت فيها حقائبي لم أجد صعوبة في الوصول إلى الجامعة . وشعرت على الفور وأنا وسط صرحها القديم بتلك الأجواء الأليفة المغلقة التي لا تشبه أجواء برلين الواسعة المفتوحة . وقد تم في ساعتين تسجيلي واتصالي بمعظم الأساتذة ؛ أما المشرف على دروسي أستاذ فقه اللغة الانكليزية فلم تتح لي رؤيته وقيل لي إن من الممكن مقابلته في الرابعة بعد الظهر في حلقة البحث .

وفي تمام الساعة الرابعة كنت في المكان المحدد مدفوعاً بحرصي الشديد على الوقت وبرغبتي المتوثبة في تحصيل (العلم) الذي كنت أنفر منه فيما مضى . وقد قمت قبل الموعد المضروب بجولة سريعة عبر المدينة الصغيرة التي كانت غارقة في السبات إذا قيست إلى برلين . ودلني الحاجب على باب قاعة المحاضرات ... قرعت الباب ودخلت بعد أن خيل إلي أنه قد

أذن لي بالدخول؛ ولكن سمعي كان قد خانني فلم يأذن لي أحد بالدخول ولم يكن الصوت الغامض الذي تناهى إلى أذني إلا الصوت العالي لمحاضرة الأستاذ الحماسية الذي كان يلقي (خطبة) مرتجلة أمام ما يقرب من أربعة وعشرين طالباً تحلقوا حوله قريباً منه. وشعرت بالضيق لأني دخلت دون استئذان فرغبت في الانسحاب بهدوء ولكنني خفت أن أفعل ذلك كيلا ألفت الأنظار إليّ إذ لم يكن أحد من المستمعين قد تنبه لوجودي. ولبثت قرب الباب وأنا أسمع ما كان يقال دون أن أتعمد ذلك.

والظاهر أن موضوع الأستاذ كان يدور حول مساجلة تربوية أو مناقشة أطروحةٍ ما؛ وقد بدا ذلك لي من التجمع العفوي الطارىء للتلاميذ حول أستاذهم؛ فلم يكن الأستاذ جالساً على منبره جلسة المحاضر وإنما كان يجلس على إحدى الطاولات وقد أرخى إحدى ساقيه وكأنه واحد من الطلاب ومن حوله يتجمع الشبان على نحو تلقائي... ثم ما لبثوا أن تسمروا

ثابتين من جراء اهتمامهم بما كان يلقيه الأستاذ. ويمكن للمرء أن يقدّر أن الطلاب كانوا بادىء الأمر يتبادلون الحديث ثم انتصب الأستاذ بغتة على الطاولة فشدهم إليه بحديثه وهو على حاله تلك وكأنه جمّدهم في أمكنتهم بعصا سحرية.

وما هي إلا دقائق معدودة حتى نسيت أنا كذلك تطفلي فشعرت بجاذبية حديثه الساحر الذي راح يشدني ويبهرني. واقتربت على نحو تلقائي لأرى ـــ بالإضافة إلى سحر الكلمات ـــ الحركات المعبرة من يديه اللتين تنفرجان كجناحين مع اللفظة الفخمة الجزلة ثم ترتفعان وهما ترتعشان لتتخذا شيئاً فشيئاً على نحو إيقاعي هيئة يدي قائد لفرقة سمفونية. وكان خطابه يزداد حدة وكأنه على صهوة جواد يخبّ ـــ إذ كان يحلق بجناحيه بحركة موقعة فوق الطاولة الصلبة ليلاحق لاهثاً مبهوراً توثب أفكاره المحمولة على صور متألقة.

لم أكن قد سمعت قط إنساناً يتحدث بمثل هذه الحماسة وبمثل هذا الأسلوب الآسر الخلاب. كنت آنذاك

أعاين أول مرة في حياتي ما وصفه الرومان من تحليق الفكر وتدفقه وتجاوزه لنفسه؛ فهذا الرجل لم يكن يتحدث لنفسه أو للآخرين حينما كانت شفتاه الملتهبتان تقبسان من (مجمرة) في داخله. نعم لم يسبق لي أن رأيت شيئاً كهذا؛ ولا سمعت خطاباً مفعماً بالوجد كهذا الخطاب ولا عرضاً انفعالياً للموضوع يمتاز بالفطرة والعفوية والأصالة؛ وهكذا رأيت نفسي بغتة بفعل المفاجأة مضطراً إلى التقدم. ودون أن أشعر بأني أتحرك وقد أُخذت بقوة سحرية سلبتني إرادتي تقدمت بخطوة لا إرادية وكأني أمشي في نومي نحو هذه الحلقة الضيقة فوجدت نفسي بغتة وعلى حين غرة قريباً من المحاضر وسط الحضور الذين حال انجذابهم دون أن يلتفتوا إلي أو إلى سواي.

كنت محمولاً على أمواج مدّ الخطاب مشدوداً إلى تدفقه وجريانه دون أن أعي موضوعه؛ وأغلب الظن أن أحد الطلاب قد امتدح شكسبير على أنه شهاب لمع ثم انطفأ... فسرعان ما تصدى له الأستاذ متحمساً ليبرهن له أن هذا الشاعر لم

يكن إلا المعبر الأقوى والشاهد الروحي على جيل كامل، بل إنه التعبير الملموس عن حقبة مفعمة بالحماسة والانفعال.

وراح الأستاذ يصف بحركة عريضة من يديه تلك المرحلة الخارقة المتميزة بالحماسة والوجد من تاريخ انكلترة؛ شأنها شأن تلك الفترات التي تتألق في حياة الشعوب والأفراد على حد سواء إذ تتكثف فيها كل القوى في انطلاقة نبيلة صوب مدارج الخلود... فها هي ذي الأرض تتسع وها هي ذي قارة جديدة تكتشف بينما كانت البابوية، أقدم سلطة في أوروبا، توشك أن تنهار... ومنذ أن صار (الأرمادا) أسطول اسبانيا طعاماً للريح والأمواج على صفحة مياه البحار التي كانت ما تزال تحت سيادة انكلترة راحت تولد طاقات جديدة؛ فلقد صار العالم كبيراً وشرعت النفوس رغماً عنها تجهد كي تواكبه فهي تريد كذلك أن تكبر وأن تكتنه أسرار (الخير) و (الشر). إنها تريد أن تكتشف وتغزو كما يفعل الفاتحون الرواد؛ إنها بحاجة إلى لغة جديدة وقوة جديدة.

وهكذا برز أولئك الذين سيمارسون هذه اللغة: إنهم الشعراء... وقد زاد عددهم على الخمسين بل المائة في عقد واحد من السنين. إنهم عصبة من الأحرار (الفطريين) الذين ما عادوا يحلمون بالسعادة الوهمية وما عادوا (ينظمون) الأساطير المتداولة كما كان يفعل أسلافهم من المتشاعرين في بلاط الملوك. إنهم أولئك الذين اتخذوا من المسرح سلاحاً؛ فلقد جعلوا من تلك الساحات التي لم تكن فيما مضى إلا ميادين تصطرع فيها الوحوش أو تجري عليها الألعاب الدموية ـــ ميداناً لمعركتهم. ونحن ما زلنا نحس في أعمالهم روح الحماسة؛ فمسرحياتهم نفسها ليست إلا حلبة تتصارع فيها وحوش الأهواء والمشاعر التي ينقض بعضها على بعض.

كانت هذه القلوب اللاهبة تنطلق جامحة انطلاق الأسود وهي تحاول أن يسبق أحدها الآخر على نحو وحشي حماسي؛ ولقد أباحوا لأنفسهم أن يصفوا كل شيء كالزنا والفجور والقتل والجرائم؛ وزاد في قيمة وصفهم الفاجر

تمجيدهم لحشد الغرائز البشرية المنفلتة . وها هي ذي الأهواء النشوى تفلت مزمجرة مهددة داخل أسوار الحلبة مثلما كانت الوحوش الجائعة فيما مضى تنطلق خارج مكامنها . إنه انفجار عنيف كأنه الصاروخ، انفجار فريد في نوعه دام خمسين عاماً . إنه حمام دموي وحشي متفجر لا نظير له عصف بالأرض ومزقها فأنت لا تكاد تميز وسط هذه الوليمة العربيدة للقوى البشرية أية ملامح خاصة أو سمات متفردة لشخصية أو كيان .

كان كل واحد يتلقى من الآخر شعلة (النار المقدسة)[1]، والجار يتعلم من جاره، وبعضهم يسرق من بعض وهم يصطرعون كي يتجاوز كل واحد رفيقه ويسبقه ... ولكنهم جميعاً ليسوا إلا مصارعين في حلبة الفكر يجمعهم

---

(١) (النار المقدسة) رمز للمعرفة التي سرق بروميثيوس سرّها من الآلهة حسب الأسطورة اليونانية . (المترجمان) .

مهرجان واحد ، أو عبيداً قطعوا سلاسلهم تسوطهم وتدفع بهم إلى الأمام عبقرية عصرهم .

كان الأستاذ وهو يحاضر يخرج بهؤلاء من ظلام الأكواخ المشبوهة في الضواحي ويبحث عنهم في القصور من أمثال (بن جنسون) حفيد البنّاء و(مارلو) ابن الاسكافي و(فيليب سيدني) رجل الدولة الغني العالم؛ ولكن العاصفة النارية تلفهم جميعاً في دوامتها الجهنمية... فبينما تراهم اليوم معززين مكرمين إذا هم غداً في قرارة بؤسهم الأسود؛ وقد تراهم يتصارعون وهم جياع من أمثال (سبنسر) في رواية (شارع الملك)... ويعيشون حياة فوضوية قوامها المغامرة ومعاشرة العاهرات والتمثيل والاحتيال... ولكنهم جميعاً شعراء شعراء حقاً وصدقاً !

ولم يكن شكسبير إلا المجسد الحقيقي لتلك المرحلة والمعبر عنها ، ولكن لا مجال لعزله عن الآخرين فلشدّ ما كانت أصواتهم عنيفة مشتجرة ، ولشدّ ما كان نتاجهم المتزايد المتنامي

يختلط فيه الحابل بالنابل، ولشد ما كانت عواطفهم تسودها الفوضى والاضطراب... ثم توقف بغتة هذا التفجر ـــ كما بدأ ـــ وهو أروع ما عرفته الإنسانية. توقف لينتهي إلى العدم وتسدل الستارة في المسرحية... وها هي ذي انكلترة الآن منهكة، والضباب الرمادي الرطب لنهر التايمز يعود ثانية ليجثم على عالم الفكر على مدى أعوام طويلة بعد أن كان جيل كامل قد وصل إلى أرفع ذرا العواطف بوثبة واحدة وراح ينبش في أعماقها ويعري النفس البشرية الفياضة المجنونة... إذن ها هي ذي انكلترة الآن متعبة مكدودة؛ فلقد عملت تلك الموجة المتعصبة السخيفة على إغلاق المسارح لتقضي على انسياب العواطف وتدفقها. ولقد عاد (للكتاب المقدس) في ذلك البلد شأنه على أنه الكتاب المنزل بعد أن كانت أكثر الأصوات إنسانية قد تجرأت على البوح بأشد الأمور خطراً وجرأة على مر العصور وبعد أن كان جيل مشحون بحرارة عز نظيرها قد عبر دفعة واحدة عن ضمير البشر.

ثم خمدت بغتة حماسة حديث الأستاذ فتوجه إلينا قائلاً :

ــ « أتدرون إذن لماذا لم أبدأ محاضرتي بتسلسل تاريخي زمني مبتدئاً بالملك أرثر وشوسر بل بدأتها خلافاً لكل قاعدة بأدباء العصر الإليزابيتي ؟ وهل تدركون لماذا أطلب إليكم قبل كل شيء أن تأتلفوا معهم وتحاولوا أن تعايشوا ذلك الأسلوب الرفيع الحار الذي مارسوا به حياتهم ؟ لأننا لا يمكن أن نفقه اللغة دون أن ننفذ إلى عمق الحياة نفسها ، ولأنه لا مجال لدراسة النصوص دراسة نحوية دون معرفة المضامين والقيم السائدة فيها . وأنتم أيها الشباب إذا أردتم أن تعرفوا حق المعرفة بلداً من البلدان أو لغة من اللغات فما عليكم إلا أن تتعرفوا أولاً أرق الصيغ الجمالية فيها وأرفع مظاهر فتوتها وشبابها وأهوائها وانفعالاتها . عليكم أولاً أن تصغوا إلى (اللغة) لدى الشعراء ؛ فهم الذين يخلقونها ويهبونها الكمال ؛ عليكم أن تحسوا بالشعر يحيا ويتنفس في قلوبكم قبل أن تعمدوا إلى (تشريحه) . ولهذا وحده أبدأ دائماً بالعمالقة لأن انكلترة

الحقيقية ليست إلا (اليزابيت) و (شكسبير) ومريديه ؛ أما كل ما سبق ذلك فليس إلّا تمهيداً له، وكل ما تلاه ليس إلّا مضاهاة شوهاء لتلك الوثبة الأصيلة الجريئة نحو (المطلق).
أيها الشباب ! اصغوا دائماً وانصتوا إلى قلب الشباب الحي في عالمنا وهو يخفق وينبض.

ونحن دائماً نتعرف كل ظاهرة فريدة أو شخصية ممتازة بما فيها من لهيب الأهواء؛ ذلك أن الفكر مصدره القلب، والأفكار معدنها الأهواء، والأهواء منبعها الحماسة : ولهذا فإن شكسبير ومريديه ـــ قبل غيرهم ـــ هم الذين سيجعلون منكم شباباً حقيقيين أيها الشباب ! إن الحماسة أولاً ؛ ثم يأتي بعدها الجد والكد. عليكم بالحماسة التي يجسدها شكسبير العظيم السامي الذي ليس إلا (لوحة) رائعة شاملة للكون. عليكم بهذه الحماسة قبل أن تدرسوا نصوصه ! والآن أكتفي بما قلته لكم... وإلى اللقاء».

قال ذلك وهو يرفع يده بحركة حاسمة حددت على نحو قاطع نهاية (السمفونية) وراح يغادر المنبر. وسرعان ما انفضت حلقة الطلاب المحكمة من حوله وكأن هزة ضربتها... وشرعت المقاعد والمناضد تقرقع وتتحرك... وانطلقت معاً عشرون حنجرة كانت ما تزال صامتة في الكلام والسعال وتنفس الصعداء. وهكذا يمكن للمرء أن يدرك الآن قوة السحر المغناطيسي الذي كان قد نجح في إطباق تلك الشفاه التي راحت الآن تتمتم. أما الحركة والصخب في القاعة الضيقة فكانت تزداد حدة وقوة... وها هم أولاء بعض الطلاب يتوجهون إلى الأستاذ ليشكروه أو يحدثوه بينما شرع بعضهم الآخر وقد صبغت وجوههم حرارة الانفعال يتبادلون انطباعاتهم فيما بينهم. والحق أن الجميع قد لفحتهم حرارة ذلك (التيار الكهربائي) الذي انقطع بغتة ولكن شرارته الخفية وتدفقه كأنها ما تزال تتفجر وتتلألأ في الجو المشحون بالتوتر.

أما أنا فلم أكن قادراً على الحركة فكأني قد صعقت؛

ولقد تملكني الانفعال فما عدت أقوى على النظر إلى الأشياء إلا بطريقة انفعالية فرحت في غمرة اهتياجي الجموح أشعر أول مرة في حياتي بأن (معلماً) (إنساناً) قد سيطر علي فأنا أعاني من سطوة قوة طاغية أرى في الخضوع لها واجباً بل أستمتع بهذا الخضوع. كنت أحس بدمي يتدفق في عروقي وبتنفسي يتسارع؛ ولقد نفذ ذلك الإيقاع العنيف لكلمات الأستاذ إلى أعماق كياني وخضعت جوارحي لوطأة سحره الجريء.

وها أنذا قد استسلمت لسحره الطاغي فاندفعت بهدوء حتى الصف الأول لأرى صورة ذلك الرجل؛ فأنا لم أميز بعد ملامح وجهه حينما كان يتكلم فلقد كانت هذه الملامح (ذائبة) في نسيج محاضرته وحبكتها. وهكذا لمحت لدى اقترابي منه صورة وجهه الجانبية على نحو غامض: كان يقف في الضوء المتسرب من النافذة متوجهاً صوب أحد الطلاب وقد وضع يده على كتفه على نحو أليف؛ ولكن هذه الحركة العفوية كان

لها طابع من الرقة والألفة بحيث لم يخطر ببالي قطٌّ أنها يمكن أن تصدر عن مربّ كبير .

وقد تنبّه إلي بعض الطلاب حينذاك ؛ ولكي لا أبدو في نظرهم في مظهر الدخيل الطفيلي اقتربت بضع خطوات من الأستاذ وانتظرته حتى ينتهي من حديثه . وها هنا استطعت أن أعاين وجهه بارتياح : كان ذا رأس روماني وجبهة رخامية محدبة وعارضين[1] لامعين يعلوهما شعر أبيض يرتد على رأسه كأنه اللبدة . كانت بنيته توحي بشخصية مهيبة وتنمّ على رجل رفيع الثقافة ؛ ولكن وجهه من تحت عينيه يبدو غضاً ناعماً ويكاد يكون أنثوياً بتلك الذقن المستديرة المصقولة وبشفته المتلونة التي ترتسم عليها الابتسامة حيناً وتنم حيناً آخر على قلق منغص . أما جمال جبهته الرجولي فقد كان يذوب ــ بسبب من نداوة جلده وطراوته ــ في وجنتين شبه غائرتين وفم متلون ؛ وإذا

---

(١) العارض : صفحة الوجه .

ما نظرت إلى وجهه المهيب الحازم عن كثب لمحت فيه ما ينم على توتر مرهق .

وكان مظهر جسمه ينبىء كذلك عن (ثنائية) مماثلة : فبينما كانت يده اليسرى تستريح مسترخية على المنضدة كانت لا تني تنقر بعقد أصابعها نقرات قلقة . وهذه الأصابع التي هي أرق وأنعم من أن تكون أصابع رجل كانت ترسم على خشب المنضدة العارية أشكالاً وهمية ... أما عيناه بأهدابهما الكثيفة فكانتا مطرقتين تنمان على اهتمامه للحديث . ترى هل كان ذلك بدافع القلق أم أن محاضرته قد تركت آثارها في أعصابه المضطربة ؟ على كل حال كان التناقض واضحاً فيما بين الاختلاج القسري ليده وبين مظاهر اليقظة والهدوء في وجهه ، ذلك الوجه الذي كان منهكاً ولكنه مصغ متنبه وكأنه مستغرق في الحديث مع ذلك الطالب .

وجاء دوري فتقدمت وأعلنت له عن رغبتي فسرعان ما أضاءت نظرته وهو يدير نحوي بؤبؤ عينيه اللامع القريب من

الزرقة... ثم رمقني بنظرة مستفسرة سريعة لفّتْ ببريقها وجهي. ولا شك في أن هذه النظرة الهادئة الفاحصة المستطلعة جعلتني أحمرّ خجلاً فلقد ردّ الأستاذ على اضطرابي بابتسامة سريعة وهو يقول:

ـ أنت تريد إذن أن تداوم على محاضرتي. إذن لا بد لنا أن نناقش ذلك على نحو أدق. أعتذر لك عن عدم تمكني من القيام بذلك في الحال. وعلي الآن أن أجيب أيضاً عن بعض الأسئلة؛ فانتظرني أمام الباب الخارجي كي ترافقني إلى منزلي.

ومد إلي يده في الوقت نفسه؛ كانت يداً رقيقة ناعمة ذات ملمس خفيف لطيف؛ ثم توجه بلطف نحو أقرب تلاميذه الذين كانوا ينتظرونه... ولبثت لدى الباب عشر دقائق وقلبي يخفق؛ فبماذا أجيبه إذا سألني عن دراستي؟ وكيف أبوح إليه بأني كنت دائماً أبعد ما أكون عن الموضوعات الأدبية في مجال الدراسة أو في أوقات الفراغ على

حد سواء ؟ ألن يحتقرني ويزدريني ؟ ألن يطردني على الفور من غشيان هذه (النار) التي شعرت اليوم بلهيبها الساحر ؟ ولكنه لم يكد يقترب مني بخطى سريعة ويرميني بابتسامة عذبة حتى أزال عني بحضوره كل شعور بالضيق؛ بل إني اعترفت له ــ دون إلحاح منه وأنا عاجز أمامه عن المراوغة ــ بأني كنت مقصراً جداً في الفصل الدراسي الأول . وألقى علي نظرة تنم على الاهتمام الحار ثم قال مبتسماً ليشجعني : « إن هذه (الوقفة) مع الطلاب ليست إلا استمراراً لسمفونية المحاضرة » . ولكي يبدد عني خجلي من جهلي راح يسألني عن أمور شخصية تتعلق بموطني الأصلي والمكان الذي أنوي النزول فيه . وحينما أخبرته بأني لم أبحث بعد عن غرفة للسكن عرض علي العون فنصحني بالذهاب أولاً إلى البناء الذي يسكن فيه؛ فهناك عجوز ثقيلة السمع لديها غرفة صغيرة للأجرة أعجب بها كل الطلاب الذين كانوا قد نزلوا فيها . أما الأمور الأخرى فسيهتم بها هو ذاته : فإذا كنت أنوي جاداً متابعة الدراسة فسيسعده أن يبادر إلى مساعدتي في كل الأمور .

ولدى وصولنا إلى مدخل منزله صافحني مرة ثانية ودعاني إلى زيارته مساء اليوم التالي كي نعد برنامجاً مشتركاً للدراسات. كان امتناني من طيبته غير المتوقعة عظيماً فاكتفيت بأن ألمس يده بإجلال وأنزع قبعتي بارتباك ناسياً التوجه إليه بالشكر.

وسرعان ما استأجرت الغرفة الصغيرة في البناء الذي يقيم فيه الأستاذ. وكان لا بد لي من استئجارها ولو لم تعجبني؛ ذلك أني أريد أن أشعر بنوع من رد الجميل بقربي ومجاورتي لذلك (المعلم) الساحر الذي تعلمت منه في ساعة واحدة ما لم أتعلمه من سائر الناس. ولكن الغرفة كانت رائعة إذ كانت فوق منزل أستاذي؛ وهي مظللة بسقيفة خشبية تعلوها، وتطل من النافذة على منظر واسع دائري لسطوح المنازل المجاورة وقبة جرس الكنيسة؛ ومن بعيد يظهر مسطح من الخضرة ومن فوقه السحب، سحب وطني الحبيبة. أما صاحبة البيت فكانت عجوزاً هزيلة صماء تهتم بنزلائها العابرين اهتمام أم رؤوم

بأيتامها . وقد اتفقت معها على الفور وبعد ساعة كنت أصعد الدرج الخشبي بحقيبتي وهي تصرّ وتئن .

لم أغادر غرفتي في ذلك المساء بل إني نسيت أن أتناول طعامي . وكان أول ما قمت به أن سحبت من حقيبتي كتاب شكسبير الذي صادف أن جلبته معي وأنا متحرق إلى قراءته والذي لم يصافحه نظري منذ أعوام . كانت محاضرة الأستاذ قد ألهبت فضوليتي إلى حد الشغف فقرأت نتاج الشاعر الانكليزي على نحو لم يسبق لي أن مارسته من قبل . ترى هل بالإمكان تفسير مثل هذه التغيرات ؟ لقد اكتشفت بغتة في نصوص شكسبير عالماً كاملاً ؛ فلقد كانت الكلمات تتهافت علي وكأنها كانت تبحث عني منذ قرون . كانت الأبيات الشعرية تسيل وتجرفني معها كموجة من نار حتى أعماق دمائي فرحت أعاني في رأسي ضرباً غريباً من الدوار الذي يعانيه من يحلم بأنه يطير فوق الأرض .

ورحت أترنح وأرتجف وأحس بدمي يسيل حاراً في عروقي وكأن حمى مباغتة قد ضربت جسدي؛ ولم أكن عانيت شيئاً من هذا من قبل... وكل ما في الأمر أني سمعت محاضرة مدهشة مؤثرة؛ ولكن نشوة هذه المحاضرة كانت ما تزال — ولا شك — تعمل عملها في نفسي. وهكذا حينما رحت أقرأ بعض السطور قراءة جهرية شعرت بأن صوتي يحاكي صوته على نحو تلقائي، وبأن العبارات تقفز متخذة ذلك الإيقاع الجموح نفسه لدى الأستاذ، وبأن يدي تتوقان إلى التحليق والطيران مثلما كانت يداه تفعلان. وفي ساعة واحدة كنت قد هدمت بعصا سحرية ذلك الجدار الذي كان يفصلني عن عالم الفكر واكتشفت في نفسي —أنا الانفعالي بطبيعتي— شغفاً جديداً ما زال يصحبني حتى اليوم: إنه الاستمتاع بكل ما على الأرض عبر النفاذ إلى روح اللغة.

واتفق لي أن وصلت في قراءتي إلى مسرحية (كوريولان) فشعرت بما يشبه الدوار إذ لمست لديّ كل سمات هذا الرجل

المتفرد عن كل أبناء جنسه من الرومان؛ ففيه الإباء والزهو والغضب إلى جانب السخرية والتهكم؛ أضف إلى ذلك كل ألوان العواطف. وشعرت بمتعة جديدة إذ اكتشفت وفهمت كل ذلك دفعة واحدة وعلى نحو مدهش! ومضيت أقرأ وأقرأ حتى أحسست بعيني تلتهبان. وحينما نظرت إلى ساعتي كانت تشير إلى الثالثة والنصف صباحاً. وكاد الذعر ينتابني من تلك القدرة الجديدة النشيطة التي هزت حواسي على مدى ست ساعات وأذهلتني عن نفسي فأطفأت النور؛ ولكن الصور كانت ما تزال تلمع وتسطع في مخيلتي. ونمت بعد لأي وأنا أتحرق وأنتظر مجيء الغد الذي كنت أتوقع منه أن يفتح أمامي آفاقاً أوسع في هذا العالم الذي اكتشفته في نفسي فابتهجت به إلى حد كبير وسأعمل على امتلاكه.

○

ولكن الغد خيب أملي؛ فلقد وصلت أول من وصل

إلى قاعة المحاضرة تحدوني اللهفة والرغبة ؛ وهناك كان (معلمي) ــ وهكذا سأسميه من الآن ــ يتهيأ لإلقاء محاضرة في علم الأصوات الخاصة باللغة الانكليزية. وسرعان ما شعرت بالخوف المفاجىء لدى دخوله : ترى هل هو الشخص نفسه الذي رأيته بالأمس ؟ أم أن مخيلتي الجامحة وذاكرتي هما اللتان جعلتا منه ذلك البطل الروماني المشتعل حماسة وهو يلوّح بكلماته الصاعقة كأنها السيف بجرأة الأبطال وإقدامهم ليروّض كل العقبات ويخضعها ؟

لم يكن ذاك الذي يدخل القاعة الآن بخطى صغيرة واهنة إلا عجوزاً متعباً ؛ فها أنذا أرى من مقعدي في الصف الأول ملامح وجهه الكامدة التي تشي بالمرض وترتسم عليها تجاعيد عميقة وأخاديد واضحة وكأن هالة الشفافية المضيئة قد غادرت سحنته. وقد انحفرت ظلال زرق كأنها الجداول في وجنتيه الرماديتين المترهلتين ؛ أما عيناه المركزتان على أوراق المحاضرة فتظللهما أجفان ثقيلة مرهقة ؛ وأما شفتاه الرقيقتان

الشاحبتان فلا تهبان لكلماته أي رنين أو صدى : ترى أين حبوره وجذله ؟ وأين حماسته التي كانت تشع من غبطته الذاتية ؟ حتى صوته بدا لي غريباً فكأنما زال عنه سحره بفعل هذا الموضوع اللغوي الصرف فراح يلقي كلماته بجفاف وكأنها خطوات رتيبة متعبة تصرّ فوق رمل جاف .

وأصابني القلق من ذلك ؛ فمن المؤكد أنه لم يكن ذلك الرجل الذي أتوق إلى لقائه بفارغ الصبر منذ أن فتحت عيني من النوم . ترى ما الذي أصاب وجهه الذي كان البارحة يلمع كأنه الكوكب ؟ ولماذا لا أرى الآن إلا أستاذاً منهكاً يمارس مهنته ببرودة وجفاف ؟! كنت أصغي بضيق متزايد إلى لهجته فلعلي ــ رغم كل شيء ــ أسمع لهجة البارحة التي قد تعود ، تلك النبرة الحارة التي سيطرت علي فسحرتني وارتفعت بي إلى حالة من الوجد والشغف . كنت أنظر إليه بقلق متصاعد وبخيبة أمل وكأني أفتش عن ذلك الوجه الذي أصبح اليوم غريباً عليّ . لا شك في أن صورة الوجه لم تتبدل ولكنها كانت تبدو

خاوية وقد عريت من كل طاقة إبداعية. كان وجهه وجه عجوز مرهق وكأنه قناع من جلد مستعار... ترى كيف يمكن لمثل هذا أن يكون؟ وهل يمكن للمرء أن يكون شاباً فتياً في ساعة ثم ينقلب إلى شيخ عجوز بعد ساعة أخرى؟ وهل كان تأجج أفكاره وغليانها من القوة بحيث يغير هيئة وجهه بغتة كما يغير لهجة كلامه فيظهره بمظهر الفتى اليافع؟

وراحت هذه القضية تؤرق بالي فكنت أتحرق عطشاً لمعرفة حقيقة هذا الرجل ذي المظهر المزدوج؛ فما كاد يغادر المنبر ويمر من أمامنا دون أن يلتفت إلينا حتى أسرعت إلى المكتبة بدافع من وحي مفاجىء فطلبت مؤلفاته... لعله كان في هذا اليوم متعب الجسد أو لعل وعكة صحية عملت على إخماد حماسته وتوقده؛ ولكنني مع كتابه الماثل أمامي لن أعدم الوسيلة للنفاذ إلى شخصيته وفهمها، تلك الشخصية التي رمتني بالحيرة والاضطراب.

وحمل إلي عامل المكتبة ما طلبت من مؤلفاته فدهشت لقلة عددها إذ لم ينشر هذا الرجل الذي يمشي إلى الشيخوخة على مدى عشرين عاماً سوى عدد هزيل من الكراسات والمقدمات ودراسة عن (الأصالة) في مسرحية (بيركليس) لشكسبير ودراسة مقارنة بين (هولدرلين) و (شيلي) في فترة لم يكن كل من الشاعرين ينظر إليه في بلده على أنه شاعر موهوب؛ أضف إلى ذلك دراسة هزيلة في موضوع فقه اللغة والحق أن هذه الكتابات كانت معدة لأن تنشر في كتاب واحد ذي جزءين تحت عنوان (مسرح غلوب: دراسة فيه وفي كتّاب مسرحياته)؛ ولكن على الرغم من مضي عشرين عاماً فإن أمين المكتبة أكد لي بعد سؤالي الملح أن هذا الكتاب لم يظهر إلى الوجود. ورحت أتصفح هذه الكراسات بشيء من الخوف وقليل من الشجاعة مدفوعاً بأملي القوي في سماع ذلك الصوت المسكر وإيقاعه القاهر مرة ثانية... ولكن هذه الكتابات كانت ذات لهجة مهيبة ثابتة فأنت لا تعثر فيها على ذلك الإيقاع الحار الشبيه بتواثب الموج بعضه فوق بعض،

ذلك الإيقاع الذي امتازت به محاضرته الساحرة. وتنهدت تنهدة عميقة قائلاً: «واأسفاه» ! وكنت أحس برغبة حادة في أن (أؤدب) نفسي غضباً عليها واستنكاراً لعاطفتي التي استسلمت إليها وعجلت في تصديقها.

وعدت فالتقيت معلمي بعد الظهر في حلقة البحث. ولم يبدأ هو الكلام بل توزع أربعة وعشرون طالباً إلى فئتين للمناقشة والمناظرة حسب الأعراف السائدة في الكليات الانكليزية؛ وكان الموضوع يتصل بشكسبيره المحبوب، وكان علينا أن نصل إلى رأي حول إمكانية النظر إلى البطلين (ترويلوس) و (كريسّيدا) على أنهما شخصيات هزلية؛ وعلى هذا تكون مسرحية شكسبير من نوع الكوميديا الهجائية أو من نوع المأساة المبطنة بالسخرية. وسرعان ما التهبت المناقشة الفكرية المجردة وتوترت بفعل يد ساحرة ماهرة. وكانت الحجج القوية ترمى بحدّة في وجه الآراء الضعيفة، وكانت الاعتراضات وصرخات الإعجاب تقوي من حدة المناقشة وتزيدها حرارة

حتى إن الأمر كاد يصل بالطلاب الشباب إلى حد المشاحنات العدائية .

وحينما وصلت حدة المناقشات العنيفة إلى أوجها تدخل الأستاذ بغتة فأطفأ نارها وأعاد المناقشة بمهارة إلى صلب الموضوع ، وفي الوقت نفسه وبنبضة خفية شحن النقاش بشحنة روحية قوية حلقت به إلى آفاق عليا ؛ وهكذا رمى بنفسه وسط هذا النقاش الجدلي اللاهب وقد امتلأ حماسة بهيجة وهو يثير ويلطّف في آنٍ معاً من حدة (المعركة) مالكاً زمام هذه الموجة المتدافعة من الحماسة الشابة التي اندفع هو نفسه إلى غمرتها .

وها هو ذا يتكىء على المنضدة وقد عقد ذراعيه على صدره وراح ينقل بصره من طالب إلى آخر مبتسماً لهذا مشجعاً ذاك بإشارة خفية على الرد الفوري وقد عاد إلى عينيه ذلك البريق الذي كان يلتمع فيهما البارحة : كنت أشعر بأنه

مضطر إلى كبح نفسه ليمنعها من الكلام ويتيح للجميع فرصة التحدث ؛ وكان دائماً يضبط نفسه بشدة إذ كانت يداه تشدان على صدره بقوة وترتعشان كي تمنعا شفتيه من الكلام . ولكنه لم يفلح في ذلك فارتمى منتشياً في أحضان المناقشة كما يرمي الغواص بنفسه في الماء ... وبحركة عنيفة من يده الملوحة شطر الجمهور المتنازع شطرين كما يفعل قائد الأوركسترا بعصاه ؛ وهكذا خيم الصمت حالاً فلخص جميع الحجج بأسلوبه المتناسق المتماسك . وكانت ملامح الأمس تعود إلى وجهه وهو يتحدث فاختفت تجاعيد وجهه وراء انفعالاته الجياشة ثم انبسطت عنقه وامتد جسمه بحركة جريئة مسيطرة وقد تخلى عن وضع المراقب المنحني ليرتمي في خضم النقاش الصاخب صخب موجة عارمة .

وسرعان ما أخذ يرتجل فبدأت أفهم أن هذا الرجل ذا المزاج البارد في وحدته يفتقر خلال إلقاء دروسه التعليمية أو حينما يعتزل في مكتبه إلى عنصر الإثارة التي يوفرها له هذا

الفريق المزدحم من التلاميذ المسحورين المبهورين، تلك الإثارة التي تعمل على تحطيم الحجاب الذي تختفي وراءه شخصيته الحقيقية : نعم أنا أعي الآن شدة احتياجه إلى حماستنا وانفعالنا كي ينفعل هو ويتحمس؛ إنه محتاج إلى انتباهنا واهتمامنا كي تتدفق أفكاره؛ إنه بحاجة إلى فتوتنا وشبابنا كي يعود إلى اندفاع الشباب . وكما ينتشي عازف الصنج بذلك الإيقاع المتدفق من بين يديه الراعشتين راح حديثه يزداد قوة والتهاباً وتلوناً وحدَّةً . كان لهاثنا مسموعاً وصمتنا عميقاً بينما كان صوته يعلو ويزداد أسراً وسحراً وكأنه ترنيمة شعرية . كنا جميعاً آنذاك في حالة من الاستسلام له وحده وقد ملك علينا حواسنا وعقولنا بقدرته الرائعة على الإثارة .

وحينما أنهى حديثه بغتة مشيراً إلى مقالة (غوته) عن شكسبير سرعان ما بردت حماستنا ... وها هو ذا الآن ــ كما فعل البارحة ــ يتكيء منهكاً على المنضدة وقد شحب لونه ولكن ما زالت آثار الانفعال تبدو عليه وتلمع في عينيه نشوة

غريبة مصدرها التدفق المستمر شأنه شأن امرأة تنتفض من ضمة عناق قاهر . وترددت في أن أحدثه الآن ؛ ولكن بصره وقع علي مصادفة فشعر ــ دون شك ــ بامتناني الحار ؛ ذلك أنه ابتسم لي بمودة والتفت إلي التفاتة خفيفة وأحاط كتفي بذراعه ليذكرني بموعدنا المسائي في بيته .

وفي تمام الساعة السابعة كنت في الموعد المحدد . ولا تسل عن اضطرابي ــ أنا المراهق ــ حينما عبرت عتبة بيته أول مرة ! فلا شيء يضاهي حرارة تقدير الشباب لمن يحبون ، ولا شيء يضاهي دماثتهم ورقتهم إلا حياؤهم المتردد ... ودخلت مكتبه ؛ وهو غرفة شبه مظلمة فلم أرَ أول الأمر وراء زجاج خزائن الكتب سوى ظهور الكتب المبرقشة الملونة التي لا تحصى . وقد علقت فوق الطاولة لوحة (مدرسة أثينا) لرفائيل ؛ وهي لوحة كان يحبها على نحو خاص ... وقد أخبرني بذلك فيما بعد . وتمثل اللوحة جميع أصناف المذاهب الفلسفية وتتجمع فيها على نحو رمزي كل أنماط التفكير في

(تأليف) متسق كامل. ولم أكن قد رأيت هذه اللوحة من قبل؛ فسرعان ما خيل إلي أني أرى شبهاً بين الوجه الصارم لسقراط وبين جبين (معلمي). وفي الجانب الآخر كان تمثال نصفي رخامي أبيض لامع لـ(غانيميد)[1] وإلى جانبه لوحة تمثل القديس سيباستيان لرسام ألماني قديم قدير؛ وما أظن أن هذه اللوحة ذات الجمال الحزين قد وضعت عبثاً في جوار الجمال الشهواني في تمثال غانيميد.

كنت أنتظر خافق القلب صامتاً صمت تلك الأعمال الفنية المهيبة النبيلة التي تتوزع الغرفة. كانت هذه (الأعمال) توحي بجمال روحي جديد عليّ لم أستشعر له مثيلاً فيما سبق ولم أكن أستوعبه على نحو واضح على الرغم من أني كنت أحس بقدرتي على التواصل الحميم مع هذه الأعمال. ولكن لم يكن

---

(١) غانيميد: في الأسطورة اليونانية شاب رائع الجمال اختطفه زيوس بعد أن تنكر بزي نسر وصعد به إلى السماء وجعل منه ساقياً للآلهة يقدم لهم شراب الخلود. (المترجمان)

لدي الوقت الكافي لتأمل كل ما حولي فهذا هو الأستاذ الذي أنتظره يدخل مقبلاً علي ... ولفني بنظرة ناعمة مضطرمة بنار خفية، نظرة فاجأتني إلى أعماقي وكشفت خبايا نفسي. ورحت أتحدث إليه بحرية مطلقة وكأنما أتحدث إلى صديق؛ وحينما سألني عن دروسي التي أنجزتها في برلين سرعان ما بحت له وأنا خائف بحكاية زيارة والدي المفاجئة وأكدت لهذا الرجل الغريب ما كنت قد عاهدت نفسي عليه من الانصراف التام إلى العمل الجاد. ونظر إلي متأثراً وقال:

ــ لا أريد لك أن تعمل بجد فحسب يا بني ... بل بشغف رحب؛ فإن من لا يملك الشغف لن يكون ــ على أحسن حال ــ إلا مربياً. وعلينا دائماً أن نتوجه إلى الأشياء بقلوبنا... نعم من الشغف والمحبة يجب أن ننطلق دائماً.

وراح صوته يكتسب دفئاً وحناناً والغرفة تزداد ظلاماً. ولقد حدثني عن شبابه: كيف بدأ هو كذلك حياته بالطيش واللهو ثم كيف اكتشف (رسالته) متأخراً. وشجعني

ووعدني بالمساعدة في حدود طاقاته وأوصاني بأن أتوجه إليه دون أي خوف بعرض رغباتي ومشكلاتي مهما كان نوعها . والحق أنه لم يسبق لأحد أن حدثني على هذا النحو من الاهتمام وبمثل هذا الفهم العميق للحياة ... كنت أرتعد من شدة الامتنان وفرحت بأن الظلام كان يخفي عيني الدامعتين .

وهكذا كان بوسعي أن أمكث ساعات طوالاً دون أن أحس بمرور الزمن لو لم أسمع ضربات خفيفة على الباب ... ثم فتح الباب ودخل شخص ناحل كأنه (الظل) . نهض الأستاذ وقال لي : « هذه امرأتي » . واقتربت زوجته بقوام أهيف غامض المعالم ووضعت يدها الصغيرة في يدي ثم توجهت إليه تقول : « العشاء جاهز » فأجابها إجابة سريعة لمست فيها شيئاً من الامتعاض : « نعم نعم أعرف ذلك » . وبدا في صوته بغتة شيء من البرودة ؛ وحينما أضاء المصباح الكهربائي الغرفة رأيت في وجه معلمي ذلك العجوز الذي كنت رأيته في القاعة الكئيبة للمحاضرات ... وبحركة متعبة أشار إلي بالانصراف .

أمضيت الأسبوعين التاليين في القراءة والدرس مشغوفاً بذلك شغفاً كأنه الجنون ... فلم أغادر غرفتي إلا في النادر حرصاً على الوقت ؛ حتى إن طعامي كنت أتناوله واقفاً . وشرعت أدرس دون انقطاع بل دون نوم أحياناً . كنت كأني ذلك الأمير في الحكاية الشرقية الذي راح يحطم أقفال أبواب الغرف الموصدة واحداً بعد الآخر ليجد في كل غرفة كومة من المجوهرات والنفائس ما تزال تكبر وتضخم ... وهو يجري من غرفة إلى أخرى بلهفة متزايدة متحرقاً للوصول إلى الكنز الأخير . تلك كانت حالتي — على وجه الدقة — حينما كنت ألتهم كتاباً وراء كتاب مسحوراً دون ارتواء : إن جموحي الآن يتحول مقتحماً عالم الفكر . وها أنذا الآن أستشعر أول مرة في حياتي عظمة عالم الفكر واتساعه ، هذا العالم الذي لم أكتشفه بعد ؛ ولشد ما كان إغراء هذا العالم لدي عظيماً شأنه شأن إغراء عالم المدن حيث المغامرة والطيش فيما مضى . ولكنني في الحين نفسه كنت أتوجس خوفاً مشوباً بالخطر من أن أكون عاجزاً عن امتلاك هذا العالم فرحت (أقتصد) في نومي

ومسراتي ولقاءاتي وكل ضروب اللهو ... لا لشيء إلا لأستغل على نحو أفضل وقتي الذي بدأت أقدر قيمته الآن فحسب . ولكنّ ما كان يلهب لدي العزيمة والهمة على هذا النحو شعوري بالزهو بأني سأخلّف لدى معلمي انطباعاً حسناً فلا أخيب أمله فيّ وبذلك أرضيه وأجعله يتعلق بي كما تعلقت به .

كنت أستغل أصغر الفرص للوصول إلى ذلك فرحت أشحذ دون انقطاع قدراتي التي ما زالت فجة فصارت مرهفة على نحو واضح كي أواجهه وأفجأه : فكلما أتى خلال محاضرة ما على ذكر كاتب أجهله كنت بعد الظهيرة أسعى وراء هذا الكاتب باحثاً منقباً كي أبسط له صباح الغد بالتفصيل في فترة المناقشة ما عرفته مزهواً بذلك . إن أية رغبة يوحي بها عرضاً بحيث لا يكاد غيري يلحظها كنت أتخذها (أمراً) لا بد من تنفيذه ... وهكذا ما إن أشار إشارة عابرة إلى إدمان الطلاب التدخين حتى رميت بغتة بلفافتي المشتعلة وهجرت إلى الأبد تلك العادة الذميمة . بل إني كنت أرى في كل كلمة

تصدر عنه قانوناً بل منّة يجود بها علي وكأنها كلمة واعظ ديني . نعم كنت أرصد بيقظة دائمة كل إشاراته العفوية لألتهمها التهاماً . كنت أتبنى تبني البخيل الشحيح كل كلمة يقولها وكل حركة يأتي بها : فحينما أخلو إلى نفسي في غرفتي كنت أهدهد بشغف وحرص كل ما كنت أكتسبه منه . كنت أرى في معلمي دليلاً ومرشداً بينما كان طموحي المتعصب لا يرى في جميع رفاقي إلا أعداء تحلف إرادتي الصارمة كل يوم على أن تنتصر عليهم وتغلبهم .

ترى أكان معلمي يشعر بمنزلته عندي ؟ أم أنه بدأ يحب جموح شخصيتي ؟ الراجح أن معلمي قد خصني باهتمام واضح متميز . كان يرشدني في قراءاتي ويدفع بي ــ أنا الغر ــ على نحو محرج إلى مقدمة المناقشات الجماعية . وفي الأغلب كان يسمح لي بمقابلته مساء لأتحدث إليه بألفة ودون كلفة . وهكذا كان يتناول أغلب الأحيان أحد الكتب من الخزانة ... وبصوته الرنان الذي يزداد صفاء وقوة كلما ازداد

حماسة يقرأ مختارات شعرية أو مسرحية أو يشرح بعض المسائل المشكلة . ولقد تعلمت في هذين الأسبوعين الحافلين بالغبطة والنشوة عن روح الفن وجوهره أكثر مما تعلمته على مدى تسعة عشر عاماً .

لم يكن أحد يقطع خلوتنا في تلك الساعة التي كنت أحس أنها تمضي سريعاً ؛ وفي الساعة الثامنة كان الباب يقرع لتعلن زوجته أن العشاء جاهز ، ولكنها لم تكن تدخل الغرفة ملبية بذلك على نحو صريح توصياته بعدم تعكير صفو حديثنا .

○

ودامت الحال على هذا النحو خمسة عشر يوماً ؛ وكنا في مطلع الصيف ... والأيام حارة مشحونة بالجد والعمل حتى شعرت ذات صباح بأن قواي قد تحطمت شأنها شأن نابض

مشدود يكاد ينقطع. وكان معلمي قد حذرني فيما مضى من الاندفاع الشديد في العمل المرهق ونصحني بالإخلاد إلى الراحة بين حين وآخر وبالذهاب إلى الريف. وها هو ذا المحذور يقع: فلقد استيقظت ذات يوم منهك القوى بعد نوم مضطرب ... فصرت أرى الحروف تتراقص أمام عيني كرؤوس الدبابيس كلما حاولت القراءة. وهكذا قررت ـــ أنا العبد المخلص لأصغر إشارة من معلمي ـــ أن أستجيب لنصيحته فخصصت يوماً للراحة من بين أيام الدراسة الجادة النهمة ... خرجت صباحاً فزرت الحي القديم من المدينة ـــ وهي أول زيارة ـــ فصعدت مئات الدرجات المؤدية إلى قبة الكنيسة كي أشحن جسدي بشيء من النشاط ... واكتشفت من فوق السطح بحيرة صغيرة وسط دائرة من الخضرة.

وأنا شمالي ولدت في الساحل فكنت مولعاً بالسباحة؛ وهكذا امتلكتني بغتة رغبة لا تقاوم في الغوص في قلب الماء، رغبة كأنها محمولة على نسمة من موطني وأنا هنا على سطح

القبة التي تنبسط من تحتها المروج المبرقعة اللامعة لمعان بحيرات خضر. وبعد لأي اهتديت بعد الظهر إلى المسبح حيث سبحت بعض الوقت فاسترجع جسدي نشاطه الطبيعي واكتسبت عضلاتي مرونة وليناً لم تعرفهما منذ أسابيع. أما الهواء وأشعة الشمس التي داعبت أديم جسدي العاري على مدى نصف الساعة فقد بعثت إلى الحياة ذلك الفتى الجموح الذي كنت عليه فيما مضى والذي كان يتشاجر ويتضارب بوحشية مع رفاقه وقد يعرض حياته للخطر بلا ثمن؛ وهكذا نسيت كتبي وعلومي وأنا أحمحم وأتمطى.

وبتلك الطاقة الفريدة التي كنت أمتاز بها والتي استرجعتها بشغف أهملته منذ زمن طويل رحت (أبلعط) على مدى ساعتين في الماء الذي طال شوقي إليه وأقفز وسط الماء مرات عديدة كي أفرغ الفائض من نشاطي؛ ولقد ذرعت البحيرة مرتين دون أن أستنفد قوتي الجامحة. ورحت أتخبط وأحرك عضلاتي المشدودة باحثاً من حولي عن تجارب جديدة

أستطيع بها الوصول بإلحاح إلى إنجاز عمل من أعمال القوة والتهور المجنون... وسمعت من الجهة الأخرى في المسبح حيث جناح النساء صوت اهتزاز خشبة القفز وهي تصرّ من جراء قفزة مندفعة قوية... ولمحت في الحين نفسه جسداً رشيقاً لامرأة يتخذ شكل هلال فولاذي ينحني في الفضاء وهو ينحدر إلى الماء... وسرعان ما ظهر في مكان القفزة دوار مائي يعلوه زبد أبيض ثم بدا على سطح الماء جسد السابحة المتحفز وتوجهت بحركات قوية من ذراعيها صوب الجزيرة التي كانت وسط البحيرة...

«فلأتبعها ولأصل إليها». هذا ما خطر ببالي مدفوعاً بحماسة الرياضي. وسرعان ما رميت نفسي في الماء وشرعت أسبح مندفعاً وراءها باذلاً المزيد من الجهد. ولكنها وقد لحظت أن أحداً يتبعها ـــ وهي الرياضية الماهرة ـــ استغلت تقدمها علي فانكفأت بمهارة وهي تمر قرب الجزيرة كي تعود أدراجها بسرعة؛ أما أنا وقد عرفت نيتها فاستدرت نحو اليمين وسبحت

بسرعة حتى صرت وراءها لا يفصلني عنها إلا شبر واحد . ولكن السابحة الهاربة غاصت بغتة في الماء بحيلة ذكية لتظهر بعد ذلك بدقائق وراء حاجز المسبح الخاص بالنساء فما عاد ممكناً الاستمرار في المطاردة . ثم صعدت السلم مبللة مزهوة واضطرت إلى التوقف قليلاً وهي تلهث ويدها على صدرها ؛ ولكنها انعطفت بعدئذ وحينما رأتني واقفاً عند (الحدود) ضحكت ضحكة الانتصار وقد بدت أسنانها البيض . ولم أستطع أن أتعرف ملامحها لأنها تلبس عمرة السباحة على رأسها وأشعة الشمس تسطع في وجهي ولكني أدركت أن ضحكتها الصريحة الساخرة كانت موجهة إلي أنا المغلوب . كنت مسروراً ومغتاظاً في آن واحد إذ تلقيت أول مرة بعد مغادرتي برلين نظرة إغراء من أنثى . . . فهل أنا مقبل على مغامرة تنتظرني ؟ ووصلت إلى مسبح الرجال بضربات ثلاث من ذراعي ووضعت ثيابي بسرعة على جسدي المبتل كي أكون مستعداً لملاحقتها على الباب الخارجي . وانتظرت عشر دقائق قبل أن تصل منافستي المغرورة فعرفتها من ملامح جسدها

المرهفة الشابة؛ وراحت تمشي بخطى خفيفة سرعان ما جعلتها سريعة حينما شاهدتني كي تفوّت علي فرصة اعتراضها. وأخذت تحث خطاها بعضلات لا تقل رشاقة ومرونة عما كانت عليه وهي في الماء. كانت مفاصل جسدها تستجيب بنشاط إلى جسدها الفتي الذي يكاد يبدو ناحلاً. أما أنا فألحت علي رغبة متحرقة في اللحاق بها خفية بينما كانت تنطلق مسرعة كي تفلت مني... ثم نجحت المحاولة؛ ففي أحد المنعطفات تقدمت بمهارة معترضاً طريقها ورفعت قبعتي محيياً كما يفعل الطلاب. وقبل أن تتمكن من التفرس في وجهي سألتها عن إمكانية مرافقتي إياها... رمتني بنظرة ساخرة ودون أن تبطيء من إيقاع مشيتها الحثيثة أجابتني بسخرية مطعمة بالإثارة:

ـــ ولمَ لا؟ ولكن أخشى أن أزعجك بسرعتي فأنا على عجلة من أمري.

وشجعني موقفها الإيجابي فازددت جرأة وسألتها

عشرات الأسئلة العادية بدافع الفضولية أجابت عنها برضًا وعفوية مذهلة بحيث وجدت مشروعاتي وقد خاب أملي في تحقيقها. ولقد تعلمت من (قوانين) برلين الخاصة بمطاردة النساء أن مقاومة المرأة لك وسخريتها منك أجدى من حديث صريح يتخلل سيراً سريعاً ... وهكذا أدركت مرة أخرى أني قد تصديت دون مهارة لخصم يفوقني قوة.

ولكنّ ما تلا كان أدهى وأمر؛ فعندما ازددت لجاجة فسألتها عن مكان إقامتها توجهت إلي بعينين رماديتين لامعتين مفعمتين بالثقة وهي تضحك لتقول: «أنا جارتك بيتَ بيتَ» فما كان مني إلا أن حدقت فيها بذهول. والتفتت نحوي بعينيها مرة أخرى كي ترى إلى فعل سهام نظراتها التي كانت قد أصابت مني مقتلاً. إذن لا جدوى هاهنا من ذلك الأسلوب الوقح الذي أتيت به من برلين ... فتمتمت بصوت متردد فيه بعض التواضع أسألها قائلاً: هل أزعجك بمرافقتي إياك؟ فأجابت وهي تبتسم:

ـــ كلا ... مطلقاً . وليس أمامنا إلا شارعان .. ولا بأس في أن نجتازهما معاً .

وأحسست بدمي يغلي ويصعد إلى رأسي في هذه اللحظة حتى صرت أمشي بصعوبة ؛ ولكن ما حيلتي ؟ أأتركها الآن ؟ ألا إن ذلك إهانة كبرى . إذن ليس لي إلا أن أمشي معها حتى منزلها المجاور لمسكني . ثم توقفت بغتة ومدت لي يدها بفتور :

ـــ أشكرك على مرافقتي . ستأتي في السادسة من هذا المساء لترى زوجي .. أليس كذلك ؟

وكان من المتوقع أن أذوب خجلاً ؛ ولكن قبل أن أتمكن من الاعتذار كانت قد صعدت الدرج فلبثت في مكاني جامداً أفكر مذعوراً بتلك الاقتراحات الحمقاء التي سمحت لنفسي بقولها على نحو فظ وقح ؛ فلقد كنت دعوتها ـــ مدفوعاً بغروري الأحمق السابق ـــ إلى نزهة في يوم الأحد وكأنها عاملة ساذجة من عاملات الخياطة ... ولقد تغنيت بيني وبين نفسي

بجسدها على نحو مفرط في الابتذال متجاوزاً حدود الحياة المرسومة التي يعيشها طالب لا مؤنس له. وشعرت بأني سأموت خجلاً وأني سأختنق من شدة كراهيتي لنفسي... وها أنذا أتصورها وقد توجهت إلى زوجها مغرقة في الضحك مزهوة فخورة لتخبره بما ارتكبته من حماقات، زوجها الذي أعدّ رأيه فيّ أثمن من آراء الناس جميعاً، والذي إذا صغرت في نظره فكأني ضُربت عارياً بالسوط على ملأ من الناس!

وهكذا أمضيت حتى المساء ساعات رهيبة فتخيلت ألف مرة سلفاً الطريقة التي سيستقبلني بها زوجها بابتسامته الخفيفة الساخرة. نعم أنا أعرف ما سيحدث؛ إن معلمي أستاذ في فن السخرية اللاذعة، ولا أحد يضارعه براعة في تسديد التعليقات الذكية التي تنفذ إلى دمك فتحرقه... وهكذا رحت في المساء أصعد الدرج المؤدي إلى بيت معلمي في حالة من الرعب تفوق رعب من يمشي إلى المقصلة. وما كدت أدخل المكتب وأنا أكاد أبكي حتى ازددت اضطراباً

فلقد خيل إلي أني أسمع من الغرفة المجاورة حفيف ثوب امرأة ؛ ومن المؤكد أنها كانت تسترق السمع وهي مزهوة لتتلذذ بما أنا عليه من ضيق وارتباك وتسخر مني فرحة بهزيمة ذلك (الشاب) الثرثار ... ثم وصل معلمي وسألني باهتمام بالغ قائلاً : « ما بك ؟ تبدو شاحباً هذا اليوم » . وزعمت له أني على أحسن حال منتظراً في الحين نفسه الصفعة التي سأنالها منه ؛ ولكن لم يحدث شيء مما كنت أتوقعه . وبدأ أستاذي يتحدث ــ على عادته ــ في موضوعات أدبية وكنت أجهد في (سبر) خلفيات كلماته بقلق شديد فلم أرَ فيها أية إشارة أو تعريض أو سخرية ... وهكذا دهشت ثم فرحت أيما فرح حينما عرفت أنها لم تخبره بشيء .

وفي الثامنة قرع الباب فاستأذنت بالانصراف وقد عاد الاطمئنان إلى قلبي . وحينما كنت على الباب مرت زوجة معلمي فحييتها فردت علي بنظرة مبتسمة ودمي يضج في

عروقي ففسرت (عفوها) على أنه وعد بالاستمرار في كتمان ما جرى .

ومنذ ذلك اليوم رحت أنظر إلى الأمور نظرة جديدة ؛ فلقد كنت حتى ذلك الحين أقدر معلمي ــ الذي أحبه على أنه عبقرية نادرة ــ على نحو بريء مقدس حتى إني أهملت كل اهتمام بأي شأن من شؤون حياته الخاصة . وكنت بفعل المبالغة التي هي سمة كل حماسة جدية قد عرّيت وجود معلمي من كل الشؤون العادية اليومية الرتيبة في حياة الإنسان . وكما لا يجرؤ عاشق غرّ على أن يجرد بفكره فتاته المعشوقة من ثيابها ، تلك التي يعبدها وينظر إليها نظرته إلى غيرها من الفتيات المحتشمات ... لم أكن أجرؤ على أن أنفذ ببصري إلى الحياة الخاصة بمعلمي فأنا لا أرى فيه إلا (كائناً) سامياً مجيداً منزهاً عن كل التفاهات المادية ؛ فهو رسول (الكلمة) ومجسد الفكر المبدع .

ولكن ها هي ذي الآن مغامرة مضحكة ــ مبكية تأتي

لتضع زوجته في طريقي فما عدت أستطيع أن أمنع نفسي عن أن أهتم اهتماماً خاصاً بحياته العائلية والزوجيـة . والحق أن فضولية المراقب المهتم قد فتحت عيني على الرغم مني ؛ فما كادت هذه النظرة المنقبة تولد لدي حتى اعتورها الاضطراب لأن حياة هذا الرجل كانت على درجة من الغرابة وكأنها لغز محير مقلق. وبعد فترة وجيزة من ذلك اللقاء دعاني إلى تناول الطعام فالتقيته مع زوجته فتولدت لدي شبهة خاصة في أن حياتهما المشتركة تكتنفها الغرابة من كل جانب؛ بل إنني كلما ازددت توغلاً في اكتشاف أدق خفايا هذه الأسرة راح شكي يزيدني اضطراباً . ولقد لمست ذلك التنافر والخلاف فيما بينهما في كل ما يصدر عنهما من كلام وتصرف ؛ بل إن (السلبية) هي التي تحكم وتسود ... إنه الغياب الكامل لكل عاطفة ، وداداً كانت أو نفوراً . هذا ما يطغى على علاقتهما فيجعل منهما لغزين محيرين على نحو غريب . كانت مشاعرهما يسودها هدوء ثقيل ينذر بالانفجار مما يجعل جو حياتهما مع هذا الهدوء أشد تنغيصاً من انفلات المشاحنات أو انفجار

الضغائن المكبوتة . إن مظهرهما الخارجي لا ينم على الحساسية أو التوتر ؛ ولكن ليس من الصعب الشعور الواضح بوجود ذلك التنافر السلوكي المتبادل . وأنت لا تكاد تلمس على نحو واضح ما يدور بينهما من حوار في أثناء ما يتبادلان من حديث ؛ نعم لم يكن أي أثر للمودة فيما بينهما لا حينما يختليان ولا حين أكون ثالثهما على المائدة : إن لهجة الأستاذ كانت توحي دائماً بالارتباك والضيق ... بل كانت البرودة أحياناً تطبع أحاديثنا مادمنا لا نعمل ؛ وهكذا فالصمت الثقيل هو الغالب بحيث لا يجرؤ أحد على قطع حبله فكنت أعاني ما أعاني من الضيق النفسي ساعات طوالاً من جراء ذلك الجو الثقيل .

كانت تلك العزلة التي يعيش فيها أستاذي ترعبني حقاً ؛ والعجيب أن هذا الإنسان المنفتح ذا المزاج الانبساطي - إلى أبعد الحدود لم يكن له أصدقاء ؛ فلقد اتخذ من تلاميذه (مجتمعاً) له وسلوى ؛ أما زملاؤه في الجامعة فلم تكن تربطه

بهم إلا علاقات (مجاملة) رسمية . ولم يكن يخالط الناس ؛ فقد تمر عليه أيام كاملة لا يغادر فيها بيته إلا ليجتاز تلك المسافة القريبة التي تفصل منزله عن الجامعة . كان يختزن كل شيء في قلبه بصمت فلا يبوح بأي شيء للناس أو للقلم .

وهكذا أدركت سر الطابع الاندفاعي والتدفق الحار اللذين يطبعان محاضراته أمام طلابه حيث كان يتدفق بغتة بعد أيام من الكبت فسرعان ما يتاح لتلك الأفكار الصامتة في داخله أن تتهافت بذلك الجموح الذي يسميه الفرسان (توثب الخيل) ، وتنطلق متدافعة من إسار الصمت إلى حلبة الكلام الفسيحة .

وفي البيت كان قليلَ الكلام وبخاصة مع زوجته ؛ ولقد لمست ــ أنا الفتى الغر آنذاك ــ على نحو مباغت مقلق أن (ظلاً) أسود يخيم فوق هذين الكائنين ، (ظلاً) يستعصي على الإدراك ... يروح ويجيء ولكنه حاضر دائماً ليعزل أحدهما عن الآخر عزلة تامة على الرغم من كل شيء . وهكذا استشعرت

أول مرة في حياتي تلك (الأمور) الخفية التي تتستر خلف (واجهة) الزواج .

هذا ؛ وكأن حاجزاً سحرياً قد وضع على عتبة المكتب ؛ فلم تكن زوجة أستاذي تجرؤ على اختراقه دون أن تدعى إلى الدخول . وبهذا يمكن لك أن ترى على نحو واضح أنها كانت مبعدة بل منفية عن عالم الثقافة الذي يعيش فيه زوجها . نعم لم يكن أستاذي يسمح لنا بأن نتحدث عن مشروعاته وأعماله في حضور زوجته ؛ بل إن توقفه المباغت عن إكمال جملة يلقيها في حماسة واندفاع لحظة دخولها المكتب كان مسلكاً لا يُحتمل لدي . أما تصرفاته القريبة من الإهانة والاحتقار والتي تكاد تكون علنية فكانت مفضوحة مهما حاول تلطيفها . كان يرفض بجفاف وصراحة أي اهتمام تبديه به زوجته ؛ أما هي فكان يبدو عليها أنها لا تلحظ تلك الإهانات أو لعلها قد تعودتها منه .

كانت تصعد الدرج وتهبط منه خفيفة رشيقة كأنها

تطير بكيانها الفتي المزهو وعضلات جسدها الممشوق. كان لديها دائماً كثير من المشاغل ومع هذا كان عندها فضلة من الوقت لارتياد المسرح وممارسة ألوان الرياضة؛ يقابل ذلك أن هذه المرأة التي يقارب عمرها الخامسة والثلاثين كانت محرومة من أي تذوق للكتب وغير مهتمة بالأجواء المنزلية فلا تحتمل العزلة أو الإخلاد إلى السكينة والتأمل. وهي لا تشعر بالراحة إلا عندما تبدد نشاطها الجسدي في الرقص أو السباحة أو الجري أو أية رياضة عنيفة؛ فأنت لا تراها إلا مدندنة تهوى الضحك متهيئة دائماً للممازحة والمداعبة. ولم تكن تحدثني أبداً على نحو جادّ بل كانت دائماً تستفزني وتنظر إلي على أني غرّ أحمق... وإذا أحسنت بي الظن فلست في نظرها إلا شريكاً صالحاً في التمارين الرياضية الجريئة.

إن هذه الطبيعة النشيطة الشهوانية المتألقة التي تميز هذه المخلوقة تناقض على نحو محير الأسلوب الذي يطبع حياة معلمي، هذا الأسلوب الكئيب الانطوائي الذي لا يعرف

الانفتاح إلا في ميدان الفكر ... وهذا ما كان يدفع بي إلى التساؤل بدهشة متزايدة عما يمكن أن يجمع حقاً بين هذين (الكائنين) المختلفين أيما اختلاف. والحق أن هذا التناقض الفريد في نوعه كان نعمة لي: فحينما أبادلها الحديث بعد عمل مرهق كنت أشعر بأن عبئاً باهظاً قد انزاح عن رأسي؛ وهكذا بعد الفراغ من جلسة يسودها التحليق في عالم الوجدان تعود (الأشياء) لتكتسب لديّ ألوانها العادية ومظهرها المادي. نعم إن روح التواصل الاجتماعي البهيج في الحياة تطالب بحقوقها على نحو ممتع؛ فهذا الشرود الذهني الذي يصيبني من جراء جلساتي الجافة مع أستاذي وما يصحبه من توتر شديد بفعل العمل الفكري المرهق ــ سرعان ما كان يزول ويتبدد بضحكة ترسلها زوجته. ولقد نمت بيني وبينها صحبة حميمة كتلك التي تكون بين الشباب؛ فنحن لم نكن نتحدث إلا أحاديث عفوية في موضوعات شتى كتلك التي نتبادلها ونحن في طريقنا إلى المسرح مثلاً ... ولذا لم تكن العلاقة فيما بيننا (خطيرة). شيء واحد كان يعكر صفاء أحاديثنا فيشحنني بالقلق؛ إنه

ورود ذكر اسم زوجها ... حينذاك كانت تجبه فضوليتي المتسائلة على نحو قاطع بصمت ينم على الضيق. وحينما أعبر بحماسة عن إعجابي بأستاذي سرعان ما ترتسم على وجهها ابتسامة غريبة غامضة وشفتاها مطبقتان. كانت تبعد هذا الرجل عن حياتها كما يبعدها هو عن حياته: كل بأسلوبه الخاص؛ ولكنهما متفقان على اتخاذ مسلك العنف ... ومع هذا فهما يعيشان تحت سقف واحد منذ خمسة عشر عاماً !

ولكن كلما زاد هذا السر استعصاء عليّ كانت لجاجتي تزداد وإلحاحي على الاكتشاف يكبر ... كان هناك (شيء) ما ... (برقع) أو (حجاب) أحس به ينوس بالقرب مني كلما باح أحدهما بكلمة. وقد خيل إلي مرات عديدة أني قد أمسكت بهذا (النسيج) الذي يثيرني، ولكن سرعان ما كان ينزلق من بين أصابعي ليعود إلى (الدمدمة) قريباً مني ... هذه الدمدمة التي لم تصل إلى أن تكون كلمة محسوسة أو صيغة ملموسة. والحق أنه لا شيء يثير الشباب ويهيجه كما

تثيره عملية (الافتراضات) الغامضة المزعجة ؛ فالخيال الذي يهيم متراخياً على عادته هنا وهناك إذا رأى بغتة أمامه هدفاً للصيد فسرعان ما تشتعل فيه اللهفة إلى مطاردة الفريسة الجديدة . نعم ؛ لقد ولدت لدي آنئذ (حواس) جديدة كل الجدة ، أنا الذي كنت حتى تلك الساعة شاباً مغفلاً : ولد لدي حاسة سمعية مرهفة أيما إرهاف تلتقط أدق ارتعاشات الصوت ، إلى جانب نظر متلصص مدقق على جانب عظيم من الارتياب والحدّة ، أضف إلى ذلك فضولية (نبّاشة) تجوس في الظلام . وهكذا شعرت بأن أعصابي توفزت إلى درجة الإيلام فهي على الدوام مستثارة بالتوجس والاستشعار لا تعرف راحة الاسترخاء وممارسة وظيفتها الطبيعية .

ومع هذا فأنا لا (أعتب) على فضوليتي المتحفزة المترصدة على الدوام فهي فضولية بريئة شريفة المقاصد . نعم إن ما كان يزيد من حماستي لم تكن دوافعه وقحة شريرة ترغب في اكتشاف بعض ألوان الوضاعات البشرية لدى إنسان

متميز ؛ بل إن الأمر على النقيض إذ كان مبعث فضوليتي ذلك الضيق الداخلي الخفي المشوب بشفقة حائرة مترددة تكتشف وهي قلقة مهمومة وجود الألم لدى هذا الإنسان المخلد إلى الصمت . وهكذا كلما ازددت نفاذاً إلى حياته كان هذا الغم المتبدي على وجه معلمي العزيز يزيدني ضيقاً ؛ ولكنها مسحة من الغم نبيلة إذ كان يتحملها بنبل وشهامة فلم يكن أبداً هذا الغم يصل به إلى تشويه مزاجه أو إلى الوقوع في أحضان غضب لا يكبح جماحه . وإذا كان قد سحرني في الوهلة الأولى من علاقتنا بإشراق أفكاره المتفجرة فأنا الآن ـــ وقد صرنا عشيرين أليفين ـــ أحس بأني أعاني انفعالاً أشد وأعمق من جراء صمته المغلق ومن جراء سحابة الحزن التي تخيم على وجهه .

نعم لا شيء أدعى إلى التأثير البالغ في روح شاب فتي مثل الألم الحاد الرجولي كهذا الألم الذي يتبدى في تمثال (المفكر) لميكل أنجلو وهو يحدق بإمعان في عالمه الداخلي

الذاتي ، أو الذي يرتسم على شفتي بيتهوفن المزمومتين بمرارة . إن هذه الملامح المأساوية وقد اختصرت آلام العالم تفعل في حساسيتنا الناشئة ما لا تفعله الألحان الزاهية لموزارت أو الألوان المترفة التي تجلل شخصيات ليوناردوفنشي . وإذا كان الشباب هو الجمال ذاته فليس بحاجة إلى أن يمثّل له الجمال في نماذج : إن الشباب يطمح في غمرة قواه المفعمة حياةً إلى ما هو مأساوي، ويبيح للحزن راضياً أن يمتص دمه الذي ما زال بكراً ... ومن هنا كان الشباب وما يزال متأهباً لاستقبال المخاطر ماداً يد الإخاء ليصافح بها آلام البشر .

إنها أول مرة في حياتي تقع فيها عيني على صورة ألم حقيقي ؛ فأنا ابن الأسرة البورجوازية الصغيرة الميسورة ، لم أعرف الهموم إلا في صورها المبتذلة اليومية المألوفة حينما تتجلى في بعض ألوان المشاكسات ، أو تلبس لبوس الحسد الأصفر ، أو تتبدى في الخلافات المادية الخسيسة ... أما الآن فأرى قلقاً من معدن أسمى وأرفع يغشي وجه معلمي . نعم إن مبعث هذه الكآبة في وجهه ذلك الحزن والغم في أعماق نفسه ؛ وكأن

إزميلاً صلباً في داخله قد حفر تلك التجاعيد والأخاديد في وجنتيه اللتين ضربتهما الشيخوخة قبل الأوان. وحينما كنت أدخل مكتبه وأنا أرتعد بخوف طفل يقترب من بيت مسكون بالجن فأراه غارقاً في أفكاره ــ كان لا يحس بدخولي فأشعر على الفور بالخجل والاضطراب في حضرة هذا الرجل الذاهل عن نفسه. كان يبدو لي حينذاك أني أمام (قالبه) الجسدي المادي فحسب؛ أما روحه فهائمة وسط أغوار غامضة مظلمة مرعبة... ومن المؤكد أن حواسه تتعطل آنذاك فلم يكن يسمع الخطوات القادمة ولا التحية الهامسة. وحينما كان يتنبه بغتة ينهض وتتهافت كلماته محاولاً إخفاء ارتباكه فيروح ويجيء ويجتهد عبر مجموعة من الأسئلة في أن يبعد عن نفسه النظرات المتسائلة... ولكن إظلام وجهه لم يكن يزول بسرعة؛ وأما الغيوم المتراكمة في نفسه فلم يكن ينجح في تبديدها سوى شروعه في محادثة غنية حارة.

وقد يشعر أحياناً بأن مظهره يثيرني حينما يلحظ

اضطراب يديّ. كان قادراً ــ مثلاً ــ على أن يقرأ على شفتي ضراعة خفية تتوسل إليه أن يوليني ثقته؛ وكان يستطيع أن يلمس في سلوكي المستطلع رغبتي الحارة الخفية في أن أحمل عنه في قلبي بعض آلامه. ومن المؤكد أنه كان يدرك ذلك؛ فطالما قطع ــ على غير توقع ــ حبل الحديث الحار فيما بيننا لينظر إلي بانفعال بل ليلفني بنظرة دافئة غامضة شاملة... ثم كان ــ في الأغلب ــ يمسك بيدي ويبقيها في يده المرتعشة زمناً طويلاً وأنا أنتظر قائلاً لنفسي: «عما قليل... قريباً... سيتكلم». ولكنه كان يكتفي معظم الأحيان بإشارة غامضة أو يفوه بكلمة باردة مخيبة ساخرة سخرية متعمدة. إنه ــ وهو أبو الحماسة التي أيقظها لدي ونمّاها عندي ــ كان يبعد تلك الحماسة عني وكأنها غلطة يمحوها مدرس في (وظيفة) سيئة؛ وكلما رآني منفتح القلب طامحاً إلى نيل ثقته وجه إلي بلهجة جافة بعض الكلمات الباردة كقوله: «إنك لا تدرك هذه الأمور!» أو كقوله: «دع عنك هذه المبالغات» مما كان يهيجني ويرميني في أحضان اليأس.

نعم؛ لطالما تألمت من هذا الإنسان المتغير دائماً تغير درجات الحرارة فهو ينتقل بغتة من (الحرارة) إلى (البرودة). إنه يعمل ــ دون أن يشعر ــ على إلهابي ثم سرعان ما (يجمّدني) حالاً ... وهو بجموحه يزرع فيّ الحماسة ليسوطني بغتة بسوط تعليقاته الساخرة! كنت أشعر بمرارة بأنني كلما ازددت منه اقتراباً صدني بعنف وقسوة يخالطهما قلق واضح. نعم ما كان لشيء أن ينفذ إليه، وما كان لأحد أن يخترق جدران سره.

كنت يوماً فيوماً أعي على نحو واضح أن هناك سراً غريباً مخيفاً يقيم في خفايا نفسه ذات الجاذبية السحرية. كنت أتوقع أنه يخفي شيئاً ما في أعماقه؛ وذلك من تلك الطريقة التي كانت بها نظراته تهرب من المواجهة. كان بعد أن يقدم بجرأة وحماسة يحجم بحذر وخوف كلما فتحت له قلبي بمودة وشكران. كنت ألمس وجود ذلك السر الخفي لديه مما ترتسم على شفتي زوجته من أمارات المرارة، ومن التحفظ البارد المتميز

في سلوك سكان البلدة الذين يرمقونك بنظرات مشوبة بالسخط كلما امتدحته ... كنت ألمس ذلك مما لا يحصى من الأمور الغريبة والاضطرابات المباغتة. نعم ما أشق أن أتصور نفسي وقد نفذت إلى عمق تلك الحياة الخاصة بمعلمي لأدور فيها وكأني وسط متاهة لا أعرف بدايتها من نهايتها !

ولكن ما كان يفجؤني ويستعصي على التفسير (غيابه) المتكرر المفاجىء؛ فحينما وصلت ذات يوم إلى قاعة المحاضرات رأيت لافتة كتب عليها إن المحاضرات قد أوقفت لتستأنف بعد يومين. هذا ولم تبد على الطلاب أية دهشة؛ ولكني — وقد أمضيت سهرة البارحة لديه — هرعت إلى منزله خائفاً من أن يكون مريضاً. وقد ردت زوجته بابتسامة جافة على انفعالي الذي فضحه حضوري الملهوف وقالت لي ببرودة عجيبة: «إن ذلك أمر مألوف ولكنك لم تتعوده بعد» ... ثم علمت من زملائي بعدئذ أنه طالما كان يختفي ليلاً ويكتفي بأن يرسل في الصباح برقية يعتذر فيها ... فلقد شاهده أحد الطلاب في

الرابعة صباحاً في أحد شوارع برلين، ورآه آخر في أحد الملاهي في مدينة خارج الحدود. كان يغيب بغتة كسدادة تنفلت من قنينة ليعود بعدئذ دون أن يدري أحد بموضع اختفائه.

ولقد حز في نفسي هذا الاختفاء المفاجىء حتى كدت أمرض فما كان مني في اليومين اللذين غاب فيهما إلا أن همت على وجهي هنا وهناك ذاهلاً قلقاً لا أدري ما أفعل. وسرعان ما أصبحت متابعة دروسي في غيابه عملاً فارغاً لا معنى له؛ وأضنيت نفسي بافتراضات شتى لا تخلو من الحسد؛ أضف إلى ذلك أن شيئاً من الكره والغضب تولد لدي تجاه غموضه المغلق الذي يبقيني بعيداً عن حياته الحقيقية وكأني شحاذ في البرد القارس ــ أنا الذي كنت أتحرق إلى مشاركته تلك الحياة. وكنت أقول لنفسي ــ ولكن دون جدوى ــ إنه ليس لي الحق وأنا التلميذ الصغير في أن أحاسبه أو أطلب منه أي تفسير لمسلكه؛ فلقد منحني برعايته الطيبة من الثقة ما لم

يمنحني إياه أي مدرس في الكلية. ولكن عقلي بهذا المنطق لم يكن له أي سلطان على هواي الجامح ... فكنت أسأل عنه عشر مرات كل يوم على نحو أهوج لأستفسر عن موعد عودته حتى جاءت لحظة شعرت فيها بأن زوجته قد أثيرت بحيث أصبحت إجاباتها بالنفي تزداد جفاء.

ولبثت ساهراً مؤرقاً إلى ساعة متأخرة من الليل وأنا أرهف السمع كي يتسنى لي سماع وقع خطواته حينما يعود. وفي صبيحة الغد رحت أجول قلقاً أمام الباب وأنا لا أجرؤ على السؤال عنه ... وحينما عاد في اليوم الثالث على غير توقع وتوجه إلى غرفتي ضاقت أنفاسي؛ والحق أن رعباً رهيباً قد أصابني بفعل مفاجأته المحيرة، هذه المفاجأة التي حاول إخفاء أثرها بأن راح يلقي علي مجموعة من الأسئلة المختلفة المتلاحقة وهو يحاذر النظر إلى وجهي. وهكذا كانت هي المرة الأولى التي يتسم فيها حديثنا بالمواربة والالتواء فكانت كلماتنا يختلط بعضها ببعض؛ وهذا ما جعل حديثنا مهوشاً متقطعاً. وحينما

غادر غرفتي اشتعلت نار فضوليتي لتفترس مع الزمن نهاري وليلي .

○

ولقد دامت هذه المجاهدة في سبيل معرفة المزيد عن سبب غيابه أسابيع طويلة ؛ فلقد سمَّرتُ نفسي بعناد وإصرار في قلب تلك النار التي كنت أحس أنها بركان يغلي تحت صخرة صمته . وأخيراً أتيح لي أول مرة في ساعة من ساعات الحظ أن ألج عتبة عالمه الذاتي ؛ فذات يوم كنت قد مكثت ــ على عادتي ــ في غرفته حتى الفجر ... حينذاك أخرج من درجه المغلق بعض المقاطع من شعر شكسبير ثم قرأ بادىء الأمر شيئاً من ترجمته لتلك القصائد ؛ وكانت ترجمة ذات سبك محكم رصين ... ثم أضاء لي بطريقة سحرية تلك الأشعار ذات المظهر الممتنع على الفهم حتى إني في غمرة غبطتي شعرت بالأسف على أن غيري من الناس محرومون من

الاطلاع على ما كان يتحفني به هذا الرجل المتدفق علماً من كلام كان يضيع هدراً . ولست أدري من أين واتتني الشجاعة حينما سألته عن سبب عدم إنجازه مؤلفه الضخم عن تاريخ مسرح (غلوب) لشكسبير . ولكنني ما كدت أجرؤ على النطق بهذا السؤال حتى تيقنت مذعوراً من أنني قد نكأت بسؤالي ــ دون أن أريد ذلك ــ جرحاً لديه عميقاً بالغ الألم؛ فما كان منه إلا أن نهض وأشاح بوجهه ولبث ساعة لا ينطق . كانت الغرفة تبدو وكأن نور الفجر الملفع بالصمت قد خيم عليها بغتة ... ثم اقترب مني وتأملني ملياً وارتجفت شفتاه رجفات عديدة قبل أن يفتحهما بهدوء لينطق بهذا الاعتراف المفجع :

« أنا لا أستطيع إنجاز أعمال عظيمة . لقد فات الأوان؛ فالشباب وحده هو القادر على إنجاز المشروعات الجريئة ، وأنا الآن لا جلد لي ولا صبر . أنا لا أخفي عنك أني صرت رجلاً قصير النفس لا يقوى على المثابرة الطويلة . كان لدي فيما

مضى مزيد من القوة والآن ليس لي شيء منها فأنا لا أقدر إلا على الكلام فحسب. إن الكلام يمنحني أحياناً القدرة على التماسك فأحس بأن شيئاً ما يسمو بي؛ أما أن أعمل مع صمت المكتب وأنا وحيد دائماً وأبداً فهذا ما لا أطيق احتماله أبداً».

ولقد حز في نفسي موقفه هذا فتوسلت إليه بلهجة عفوية عميقة أن يفكر بأنه قد آن الأوان لأن يمسك يده على ما يبذره على طلابه كل يوم، وبألا يكتفي بأن يعطي ويعطي... فلا بد له أن يحفظ ما لديه من (كنوز) في مؤلفات مطبوعة. أجابني بلهجة متعبة: «أنا لا أقوى على الكتابة وليس لي جلد على التركيز». قلت له: «في هذه الحالة ما عليك إلا أن تملي علي»... وإذ راقت لي هذه الفكرة ألححت بشيء من التوسل قائلاً: «نعم؛ ما عليك إلا أن تملي عليّ. جرّب... قد تستصعب ذلك في بداية الأمر ولكنك ستألفه فيما بعد ولن تتخلى عنه. جرب أن تملي عليّ. أرجوك. حباً بي».

رفع عينيه مندهشاً أول الأمر ثم راح يفكر ... وخيل إلي أن الفكرة قد أعجبته. أجابني مستفهماً: «حباً بك؟» وأردف يقول: «أتظن حقاً أن الناس يمكنهم أن يستمتعوا بما سيكتبه رجل عجوز على شاكلتي؟». وشعرت من اللهجة المترددة التي كان يتكلم بها بأنه بدأ يضعف ويذعن ... لمست ذلك في نظرته المنكفئة التي كانت منذ لحظة مثقلة بسحابة من اليأس وها هي ذي الآن تنقشع عنها تلك السحابة بفعل حرارة الأمل فانبسطت تلك النظرة شيئاً فشيئاً وقد وجدتْ لديها ما تستضيء به. وعاد يسأل: «أتظن ذلك حقاً؟» ... فشعرت بأن إرادته تتهيأ ضمنياً لتقبل ما أوحيت به إليه. وصرخ بغتة يقول: «طيب. فلنحاول. إن الشباب دائماً على صواب. والعاقل من أصغى إلى صوت الشباب».

ويبدو أن فرحي العنيف الذي تفجر وأن نشوة النصر التي عبرت عنها بتلك الطريقة قد أعادتا إليه حب الحياة والاندفاع إليها ... فشرع يروح ويجيء بخطى واسعة وكأنه

شاب مفعم بالحياة؛ واتفقنا على أن نعمل كل مساء بعد العشاء فوراً في الساعة التاسعة مدة ساعة... وهكذا بدأ الأستاذ في مساء اليوم التالي يملي علي وأنا أكتب.

يا لها من لحظات! وماذا أقول في وصفها؟ كنت أنتظرها طوال النهار؛ وكلما حل وقت الظهيرة كانت حواسي المتحرقة (تتكهرب) بفعل هيجان محموم مثير. كنت لا أكاد أقوى على احتمال الساعات التي تفصلني عن موعد المساء. وفي الموعد المضروب وبعد أن ننتهي من العشاء كنا نتوجه إلى المكتب فأجلس أنا إلى الطاولة مديراً له ظهري وهو يذرع الغرفة بخطى مضطربة إلى أن تجيء اللحظة التي (يستجمع) فيها لهجته... ثم يحدد ارتفاع صوته المتدرج الإيقاع الذي سيتخذه في الإلقاء؛ فلقد كان هذا الرجل الفريد يستمد أفكاره كلها من تناغم العواطف. إنه محتاج دائماً إلى ما يحرك أفكاره ويدفع بها! كان في الأغلب يتناول ما ينبعث تلقائياً في أثناء إلقائه المتدفق من صور أو استعارات أو مواقف حية

فيوسعها ويجعل منها (مشهداً) دراميا... وحينذاك كانت تنبعث من لمعات بديهته المتدفقة إشراقات رائعة من قلب الفطرة المبدعة: وأنا ما زلت أذكر بعض السطور التي تشبه القصائد الحماسية الهجائية وسطوراً أخرى تنداح كأنها الشلال لتتشعب بقوة وغزارة فتذكرك بما في إلياذة هوميروس من وصفٍ لمعارك السفن أو بتلك الأناشيد الوحشية للشاعر والت ويتمان.

نعم حينذاك أتيح لي ـــ أنا الشاب الغر ـــ أن أنفذ إلى سر عملية الإبداع الأدبي: فلقد رأيت الفكرة قبل أن تتخذ لونها وشكلها... شأنها شأن (البرونز) المصهور المعدّ لصب الجرس... رأيتها تولد من قلب الانفعال المندفع لتتكامل شيئاً فشيئاً وتتخذ شكلها الملائم الذي أنجز وتماسكت أجزاؤه في قالب من الكلمات الواضحة المعبرة... وكما يصدر ضارب الجرس ألحانه الرنانة، كان معلمي يلبس العواطف الشعرية رداء اللغة البشرية لينقلها إلى الناس.

ومثلما تكون القطعة الموسيقية نتاجاً لمجموعة من الألحان، وكما يكون العرض المسرحي ثمرة للوحة مدروسة مهيأة للإخراج؛ كان ما يمليه أستاذي ــ بتلك السعة والغزارة وبتجاوزه قواعد اللغة وقوانينها ــ يتدفق وكأنه ترنيمة ... ترنيمة للبحر ذات صيغة حسية مرئية تجسد اللانهائي، ترنيمة تبسط أمواجها من أفق إلى أفق وهي ترنو إلى الأعالي وقد أخفت في صدرها طائفة من الأسرار ... وبين الحين والحين تسخر من الأقدار بأسلوب فيه الجد والعبث وتعبث بمصائر الناس الهشة الضعيفة؛ ومن هذه الترنيمة كان يولد وصف (المأساوي) على أنه القوة الحية المدمرة التي تفعل فعلها في كياننا.

ثم سرعان ما توجهت موجة إلقائه المبدع صوب بلد كان ينمو ويتشكل ... إنه (انكلترة)، تلك الجزيرة التي تحيط بها منذ الأزل أمواج الشك والحذر المتتابعة، هذه الأمواج التي لم تسلم منها أية منطقة أو أي شاطىء في العالم. إن عنصر الشك والحذر هذا هو الذي عمل في انكلترة على تشكيل

(الدولة) ؛ وهذا العنصر بنظرته الصائبة الصافية هو الذي نفذ إلى عيون الانكليز فلونها بالرمادي أو الأزرق فكان كل مواطن في انكلترة بحاراً وجزيرة في الحين نفسه شأنه شأن بلاده ... وهكذا راحت الأهواء العاصفة العنيفة تغلي معربدة لدى هذا الشعب الذي امتحن قواه دون كلل عبر القرون منذ أن كان أجداده (الفايكنغ) يمخرون عباب البحر مغامرين على غير هدى ... ثم يحل ضباب السلم على تلك الأرض التي تصخب من حولها الأمواج ؛ ولكن سكان هذه الأرض الذين ألفوا العواصف كانوا يودون العودة إلى البحر ليجابهوا الأحداث القاسية المريرة بكل أخطارها . وهكذا ابتكروا لأنفسهم انفعالات جديدة عنيفة مثيرة عبر الألعاب الدموية فانتصبت الحواجز في الحلبات لمطاردة الوحوش ومصارعتها ، وراحت دماء الدببة تصبغ تراب الميادين بينما يثير قتال الديكة الوحشي التلذذ بالمناظر الرهيبة .

... ثم راحت الأحاسيس التي شحذت وأرهفت

تبحث عن انفعالات أنقى وأصفى في صراعات بطولية بشرية فكان أن وُلدت عروض دينية تقام في الكنائس نجم منها لون آخر من الأهواء البشرية يسترجع كل تلك المغامرات؛ ولكنها الآن مغامرات ميدانها (محيط) القلوب والمشاعر: إنه عالم جديد لا نهائي تعمره أمواج الأهواء وتيارات الفكر المتلاطمة الصاخبة... إنه (المحيط) الذي راح أبناء هذا العرق الأنكلوسكسوني يحسون بمتعة جديدة في الإبحار فوق أمواجه وهم يترنحون ويتمايلون منتشين، هذا العرق القوي دائماً على الرغم من حداثة تاريخه. وهكذا كانت ولادة مسرحية الأمة الانكليزية، مسرحية العصر الإليزابيتي.

وبينما كان أستاذي مسترسلاً بحماسة واندفاع في وصف تلك البدايات الفطرية الأولية كانت أفكاره المبدعة تتردد أصداؤها قوية. أما صوته الذي بدأ سريعاً مدمدماً ثم انطلق وامتد فلقد أصبح رناناً محلقاً تحليق طائرة تصاعد في أعالي الجو لمّاعة طليقة مندفعة: وهكذا صارت الغرفة بجدرانها

الكتيمة التي ترجّع الصدى أضيق من أن تستوعب صوته الذي يريد مجالاً أرحب. كنت أشعر بأن (العاصفة) تهب من حولي؛ وخيل إلي وأنا منحن على طاولة الكتابة أني عدت إلى موطني وأني فوق كثيب رملي على الشاطىء أواجه لاهثاً زئير الأمواج وزوابع الرياح. وهكذا كنت أحس أول مرة برعشة تزلزل روحي المذهولة الخائفة المسحورة، رعشة مؤلمة كتلك التي تصحب ولادة الإنسان أو ترافق مخاض الكلمة.

وحينما انتهى أستاذي من إلقائه الذي كان بموهبته القوية ينتزع فيه على نحو رائع الكلمة من صيغتها العلمية الجافة ليكسو الفكرة ثوب الشعر... كنت أترنخ نشوةً وأرزح تحت وطأة إعياء شديد باهظ يختلف عن التعب الذي كان يعانيه أستاذي؛ فتعبه ناجم عن خور قواه ونفادها بينما كنت في غمرة ما ينبع من كلماته أرتعش تحت وطأة إحساسي بالامتلاء والغزارة الدفاقة. وكنا كلانا بحاجة إلى تجاذب أطراف الحديث؛ فلقد كان ذلك لنا ضرباً من الاسترخاء ومجلبة للراحة

فالنوم. كنت في العادة أعيد قراءة ما كتبته مختزلاً؛ والغريب في الأمر أني ما أكاد أحول الرموز إلى كلمات حتى أسمع شخصاً غير شخصي يتكلم ويتنفس ويعلو صوته وكأن (كائناً) خفياً قد غير لغتي... كنت أدرك ذلك فيما بعد؛ فحينما أعيد القراءة أقلد نبرته الموقعة بأمانة شديدة وبنجاح كبير في التقليد حتى يخيل إلى السامع أن أستاذي هو الذي يتكلم بصوتي... لقد صرت صورة عن شخصه وصدى يرجّع كلامه.

لقد مضى على ذلك كله أربعون عاماً؛ ومع هذا ما زلت إلى اليوم ــ وأنا في معرض إلقاء محاضرة أو خطاب مدفوعاً بزخم الكلمة ــ يباغتني شعور مزعج بأني لست أنا الذي يتكلم، وإنما هو شخص آخر استعار مني لساني. حينذاك أتذكر صوت عزيز راحل ما زال يعيش عبر كلماتي ويملي عليّ ما أقول وأنا أحلق على جناح الحماسة. نعم إن أعماله هي التي عملت على تكويني.

○

وراح الكتاب يكبر ويكبر من حولي كأنه غابة كثيفة تلفني ظلالها شيئاً فشيئاً لتحجب عني كل ما وراءها . كنت أعيش في عالمي الداخلي بين جدران البيت وفي ظل دوحة الكتاب ذات الأغصان المرفرفة ، هذا الكتاب الذي كان ينمو ويكبر ؛ كنت أعيش في كنف هذا الرجل الذي يكلؤني ويدفئني برعايته .

كنت أمضي معه معظم أوقاتي ما عدا بعض الساعات التي أقضيها في سماع بعض المحاضرات . كنت أتناول طعامي على مائدته ليلاً ونهاراً وأصعد وأهبط من بيتي إلى بيته كما يصعد ويهبط ؛ فلقد كان لديه مفتاح مسكني ولدي مفتاح منزله بحيث يتاح له أن يجتمع بي ساعة يشاء دونما حاجة إلى نداء صاحبة المنزل الثقيلة السمع . وهكذا كلما كانت علاقتي به تزداد قوة كنت أزداد عزلة عن العالم الخارجي : كنت أقاسمه حرارة تلك الحياة الداخلية كما أقاسمه عزلته الجليدية البعيدة عن كل حياة اجتماعية . وهذا ما جعل رفاقي جميعاً يظهرون حيالي

شيئاً من البرودة والازدراء. أكان ذلك ضرباً من الكيد لي أم أنه لون من الحسد مبعثه ذلك الإيثار الواضح الذي اختصني به أستاذي من دونهم ؟ ومهما كان الأمر فلقد حرّموا علي الاختلاط بهم وتجنبوا في حلقات البحث أن يوجهوا إلي أية كلمة أو تحية وكأنهم اتفقوا على ذلك ؛ بل إن الأساتذة ما كانوا يخفون عني جفاءهم : فذات يوم حينما طلبت من أستاذ اللغة اللاتينية بعض المعلومات البسيطة صرفني ساخراً وهو يقول :

ــ أما وأنت صديق حميم للأستاذ (س) فالمفروض أن تعرف ما تسأل عنه !

ولقد حاولت أن أتلمس تفسيراً مقنعاً لهذه التهمة الظالمة الموجهة إلي ؛ ولكن لم أجد أي تفسير لا في نظرات مَن حولي ولا في كلماتهم. وكنت قد اعتزلت الحياة والناس منذ أن نذرت نفسي للعيش مع هذين المخلوقين المعتزلين.

ولم تكن هذه العزلة عن المجتمع لتقلقني ما دمت متوجهاً توجهاً مطلقاً صوب قضايا الفكر ؛ ولكن أعصابي مع

الزمن لم تعد تحتمل ذلك التوتر المستمر ؛ فالمرء لا يمكنه العيش على مدى أسابيع وهو غارق في دنيا الفكر والثقافة دون أن يؤدي ضريبة ذلك . زد على هذا أني غيرت تغييراً تاماً أسلوب حياتي إذ انعطفت انعطافاً حاداً من النقيض إلى نقيضه كي أحتفظ بهذا التوازن الخفي الذي وهبتنا إياه الطبيعة . لقد كان سلوكي العابث في برلين يهب جسمي العافية ، وكانت مغامراتي النسائية اللاهية تبدد عني ما يتراكم لدي من قلق وهمّ ... وها أنذا اليوم أنوء تحت وطأة جو ثقيل مرهق لا يفتر عن تدمير حواسي المهتاجة المترنحة التي تعصف بكياني وكأني أنتفض بفعل تيار كهربائي . نعم لقد نسيت طعم النوم الهانىء العميق ؛ ومع ذلك كنت دائماً أستمتع ساهراً طول الليل بنسخ ما أملاه عليّ أستاذي في العشية تحرقني الرغبة في إعادة الأوراق المنسوخة أسرع ما يمكن إلى أستاذي الحبيب . زد على هذا أن دروسي في الكلية والتحضير السريع للنصوص كان يقتضيني مزيداً من الاهتمام والحماسة . وكان أشد ما يثيرني ويهيجني في أحاديثنا المتبادلة أني كنت أتوجه إليه بملء حواسي

كيلا أبدو في نظره غير مهتم لما يقول ... وسرعان ما راح جسدي المهمل المنهك يؤدي ضريبة ما عاناه من ألوان الإفراط ؛ وهكذا انتابتني مرات عديدة نوبات من الإغماء التي لم تكن إلا إنذاراً توجهه حالتي الصحية المهملة المهددة بالخطر .

لكن الإعياء المثبّط كان يتفاقم لديّ ، فاصطبغ تعبيري عن مشاعري بلون من الحدّة المتناهية ، وراحت أعصابي المنهكة تهز مني الجوارح وتؤرقني وتبعث فيّ أفكاراً غامضة كانت ما تزال حبيسة مكبوتة . وكان أول من لحظ التدهور الواضح في حالتي الصحية زوجة معلمي ؛ فلقد كانت تتفحصني باهتمام بنظراتها القلقة علي ... وكانت تتعمد أن تطعّم أحاديثنا ببعض النصائح كأن تقول لي : «إننا لا نستطيع أن نمتلك العالم بطرفة عين ... » ثم أفصحت بدقة متناهية عما يجول في خاطرها فقالت لي ذات يوم أحد والشمس ساطعة وأنا أكدح في دراسة النحو : «أما كفاك ؟

لقد طفح الكيل ... » قالت ذلك وهي تنتزع الكتاب بقوة من بين يدي . واستأنفت تقول : « كيف يمكن لشاب يفيض حيوية أن يستعبده الطموح إلى هذا الحد ؟ لا تتخذ من زوجي قدوة ومثالاً فهو رجل مسن وأنت في ريعان شبابك ، فما عليك إلا أن تعيش بأسلوب غير أسلوبه » .

نعم ؛ فكلما تحدثت عن زوجها كانت تضمّن كلماتها هذه النغمة من الازدراء التي كنت أحس معها ــ أنا تلميذه المخلص ــ بالإهانة . كنت ألحظ أنها مصممة بدافع من الغيرة الخاطئة على العمل المستمر على إبعادي عن أستاذي فكانت تحاول ــ عبر السخرية ــ أن تحول بيني وبين تعلقي المفرط بزوجها . وحينما كنا نلبث في العمل إلى ساعة متأخرة كانت تقرع الباب بحدة دون أن تبالي باعتراضات زوجها الثائر فتضطرنا بذلك إلى التوقف . وقالت لي ذات يوم بمرارة حينما رأتني على شفا الانهيار :

ــ لسوف يتلف لك أعصابك ويجهز على

(صحتك)... لشدّ ما قسا عليك في تلك الأسابيع الماضية ! أنا لا أستطيع السكوت على ذلك الأذى الذي تلحقه بنفسك. زد على هذا...

وتوقفت دون أن تنهي جملتها؛ ولكن شفتها الشاحبة كانت ترتعش من الغضب الذي لا تقوى على كبحه.

وواقع الحال أن معلمي كان يقسو علي؛ وكلما ازددت شغفاً بخدمته ازداد إهمالاً لتعلقي الملهوف به. كان نادراً ما يوجه لي الشكر؛ وحينما كنت أحمل إليه في الصباح ما أنجزته من عمل استغرق مني نصف ليلي كان يكتفي بأن يقول بلهجة جافية: «كان بوسعك أن تنتظر إلى الغد». وحينما كنت أقوم ـــ مدفوعاً بحميتي ـــ بأية بادرة من شأنها أن ترضيه وتسره كان يفاجئني بأن يزم شفتيه ويصدني بكلمة لاذعة ساخرة؛ ولكنه حينما يراني فيما بعد مهيناً مضطرباً كان يلفني بنظرة دافئة ليطرد عني شعوري باليأس والإحباط؛ ولكن ما أندر أن يحدث ذلك. نعم ما أندره !

إن هذا التذبذب بين (الحرارة) و (البرودة) مضافاً إليه ذلك الأسلوب في التعامل إذ يدنيني منه بلطف ورقة ثم يبعدني عنه بجفاء مثير قد جعل من نفسي الأبية فريسة للقلق والاضطراب، نفسي التي لا أستطيع تحديد ما تبتغيه وتطلبه على نحو واضح، ولا أدري ما تطمح إليه، ولا أعرف ما الذي تهدف إليه وأنا أسخر لها جهودي وطاقاتي... بل أي جدوى أنتظر الحصول عليها من جراء هذا الإخلاص والإيثار الشديد؟ إن عاطفة العشق المنصبة على المرأة مهما كانت نقية صافية لا بد أن تطمح تلقائياً إلى تكامل جسدي... نعم إن الطبيعة المبدعة قد هيأت لهذا التكامل ضرباً من الاتحاد السامي عبر امتلاك الأجساد بعضها بعضاً؛ ولكن هيهات للشغف الروحي ـ الفكري المتبادل بين رجلين أن يطمح إلى الإحساس بامتلاء التحقق وهو المستعصي على ذلك! إن هذا الشغف يلف ويدور حول موضوع حبه وهو دائم التوقد بوجدٍ جديد عبر البذل والعطاء دون أن يرتوي. إنه يسيل هادئاً كنهر

لا يتاح له أن يفيض فهو لا يعرف الارتواء أبداً ، شأنه في ذلك شأن عالم الروح نفسه .

وهكذا لم تعمل معايشتي لأستاذي على تقريبي منه كما أريد ، ولم يكن (حضوره) يتجلى أو يتحقق أبداً على ما يرام عبر محادثاتنا الطويلة ؛ بل إنه حينما كان يفتح لي قلبه بصدق وصراحة كنت أعلم علم اليقين أنه بعد لحظة سيهدم بتصرف جافٍ ذلك الانسجام الذي يكاد يكون تاماً فيما بيننا . نعم إن هذا التذبذب كان مبعث اضطراب وتشويش في نفسي . وأنا لا أبالغ حين أقول : إنني أوشكت أن أرتكب حماقةً ما وأنا في ذروة انفعالي حينما رفض بيد لا مبالية كتاباً عرضته عليه ذات مرة ، وحينما نهض بغتة وصرفني بجفاء قائلاً وهو يربت بيد حانية على كتفي : « نحن في ساعة متأخرة . طابت ليلتك ! » وذلك بعد أن كنا غارقين في حوار عميق وأنا أتابع مبهوراً تدفق أفكاره .

إن مثل هذه التصرفات التافهة كانت تكفي لتنغّص

أيامي وليالّي ؛ ولعل فرط حساسيتي المتوفزة المتنبهة كان يجعلني أرى في كل ذلك إساءة أو إهانة لم تكن في نية معلمي . ولكن ما جدوى أن نعزي أنفسنا بعد فوات الأوان حينما نكون فريسة لانفعالات واضطرابات مصدرها حساسية عميقة مفرطة ؟ المهم أن ذلك الموقف كان يتكرر كل يوم : فأنا أتحرق ألماً بالقرب منه بينما إحساسي ببعده يحزن قلبي . نعم كانت تصرفاته دائماً تخيب أملي ، ولم أكن أجد لديه ما يطمئنني ؛ بل إن أهون التوقعات شأناً كانت تجعلني نهباً لفوضى المشاعر المضطربة !

والغريب في الأمر أنه كلما شعرت بأنه قد جرح مشاعري التجأت إلى زوجته ؛ ولعل مرد ذلك إلى رغبة لا شعورية مني في التعاطف مع شخص يعاني مثلما أعاني من هذا الصدود الصامت ؛ أو لعل ذلك كان بدافع حاجتي إلى محادثة إنسان يفهمني وقد أجد لديه العون . على كل حال كنت ألجأ إليها على أنها (حليف) سري لي ؛ ولقد تعودت منها

أن تسخر من فرط حساسيتي حيناً وأن تصرح لي حيناً بلهجة باردة وهي تهز كتفيها بأنه لا بد لي من تعود هذه التصرفات الغريبة المؤلمة. ولكنها كانت أحياناً تنظر إلي نظرة صارمة بعينين ملؤهما الدهشة حينما كنت وأنا في غمرة يأسي أصب على أستاذي سيلاً من اللوم الغاضب والكلمات الثائرة ودموعي تسيل... حينذاك لم تكن تنبس بكلمة بل يبدو على شفتيها لون من التشنج المكبوت فأحس بأنها تبذل مزيداً من الجهد كي لا تفلت من فمها كلمة غاضبة أو تبوح بشيء. والذي لا شك فيه أنه كان لديها هي كذلك ما تقوله، ولعلها كانت تخفي السر نفسه الذي يخفيه معلمي. وبينما كان معلمي يصدني بقسوة وجفاء حينما ألح عليه بأسئلتي، كانت هي — في الأغلب — تهرب عن طريق المزاح أو المكر من أي شرح أو تفسير.

وذات مرة كدت أجبرها على البوح على الرغم منها؛ ففي صباح أحد الأيام حملت إلى أستاذي ما أملاه علي من

صفحات تتناول شخصية الشاعر (مارلوي) فرأيت نفسي مدفوعاً إلى التعبير بحماسة عن تأثري الشديد بهذا المقطع فقلت بلهجة إعجاب وانفعال قوي : « إنه ليس بمقدور أحد أن يخط (صورة) على هذا النحو من الفخامة والمهابة » فما كان منه إلا أن زم شفتيه وأشاح عني بنزق ثم رمى بالأوراق على المنضدة ودمدم بازدراء :

ـــ لا تقل مثل هذه السخافات ! فما الذي يمكن أن تدركه من (الفخامة) والمهابة ؟

وكانت هذه الكلمة الجافية التي ليست إلا قناعاً يخفي به خجله السريع كافية لكي تنغّص علي يومي . وحينما خلوت إلى زوجته بعد الظهيرة انفجرت بغتة وكأن نوبة هستيرية أصابتني فصرخت وأنا أمسك بيديها :

ـــ بربك أخبريني لماذا يكرهني هذا الكره ويزدريني هذا الازدراء ؟ ما الذي فعلته له ؟ ولماذا يثيره كلامي إلى هذا

الحد ؟ ماذا ينبغي أن أفعل ؟ مدي إلي يد العون . لماذا لا يقوى على احتمالي ؟ أخبريني ... أتوسل إليك .

وسرعان ما أصابتني الدهشة من انفجاري الصريح العفوي ... رمقتني بنظرة حادة وقالت :

ــ لا يقوى على احتمالك أنت ؟!

وأطلقت ضحكة عريضة تنم على كثير من الخبث الجارح جعلتني أتراجع تلقائياً ... ثم نظرت بغضب إلى عيني المشدوهتين وكررت قولها :

ــ لا يقوى على احتمالك أنت ؟

ثم ما لبثت بعد حين أن مالت علي وصارت نظراتها أكثر رقة وحنواً تكاد تنطق بالعطف والإشفاق ؛ وبغتة راحت تمر بيد حانية على شعري وهي تقول :

ــ الحق أنك طفل غبي لا يلحظ بل لا يعرف شيئاً .

ولكن من الخير لك أن تكون كذلك حتى لا تقع في مزيد من التخبط .

ثم أشاحت بوجهها عني على نحو مفاجىء. وعبثاً حاولت تهدئة نفسي إذ كنت أشعر بأني في قلب كابوس أسود خانق أكافح جاهداً كي أجد تفسيراً أخرج معه من هذه البلبلة الغامضة لتلك المشاعر المتناقضة .

○

ومضت بي على هذه الحال أربعة شهور عانيت فيها انفعالات وتحولات غريبة عجيبة . كان الفصل الدراسي يوشك أن ينتهي . وكنت أنظر بهلع إلى العطلة الصيفية وهي تقترب ؛ فأنا أهوى هذا الجو الذي أعيش فيه حيث تتطهر نفسي وتصفو ، بينما كنت مهدداً في حياتي العائلية في بلدي بجو باهت يعادي الثقافة ، جو كأنه المنفى يسلبني كياني وذاتي .

ورحت أقلّب في رأسي طائفة من المشاريع السحرية الهامة أقنع بها أهلي على أنها تقتضي مني البقاء حيث أنا ... وبدأت أحوك بمهارة طائفة من الأكاذيب والمخارج التي تسوغ إطالة إقامتي المثيرة . ولكن موعد سفري كان قد حدد منذ زمن طويل ... كان هذا الموعد معلّقاً فوق رأسي دون أن أراه ، شأنه شأن رنة الظهيرة (الكامنة) في معدن الأجراس البرونزية التي تدوي على غير توقع كي تدعو الناس على نحو حازم إلى بدء العمل أو الكف عنه .

أما تلك الليلة المصيرية ذات الجمال الخلاب فلست أدري كيف بدأت ! كنت قد تعشيت مع معلمي وزوجته ... النوافذ مفتوحة والسماء ذات الغيوم البيض تلقي بظلالها المتدرجة في جو الغرفة المظلم: كنت أستشعر أمواج عذوبة وصفاء تنداح بمهابة لتعمل على إذكاء نار الانفعال ... وكنت قد تحدثت إلى زوجة معلمي بانسياب وارتياح لم نمارسهما من قبل . وكان أستاذي صامتاً حينما كنا نتحادث ؛ ولكن صمته

كان أشبه بجناحين يخيمان فوق حديثنا. كنت أسترق إليه النظر فلمحت لديه انشراحاً واضحاً مشوباً بشيء من الانفعال الخالي من الهيجان شأنه شأن تلك السحب الصيفية التي تتهادى من فوقنا.

كان يرفع أحياناً بكأس النبيذ في مواجهة النور ليتملى جمال لونه؛ وحينما كنت أراقب مغتبطاً هذه الحركة كان يبتسم ويوجه كأسه صوبي وكأنه يدعوني إلى أن أشرب نخبه. هذا ولم يسبق لي أن رأيت إلا على قلة وجهه بهذا الصفاء وحركاته بهذه البساطة والهدوء: كان فرحاً مبتهجاً كأنه في عيد، أو كأنه يصغي إلى موسيقى تصل من الشارع أو ينصت إلى حديث خفي. أما شفتاه الدائبتا الحركة في العادة فكانتا آنذاك هادئتين نديتين نداوة ثمرة مقشرة؛ وأما جبهته المواجهة للنافذة فكانت تغمرها موجات هذا الضياء اللطيف فتبدو جميلة جمالاً لم أعهده فيها من قبل. ألا ما أروع أن أراه على هذه الحالة من الاطمئنان والرضا. ترى هل كان ذلك من جراء

صفاء هذه الأمسية الصيفية أم أن عذوبة هذا الجو ذي الإيقاع المتدرج فعلت فعلها في نفسه ؟ أم تراها فكرة مريحة مطمئنة أشرقت في فكره ؟ لست أدري ! ولكني ــ وقد تعودت أن أقرأ وجهه كما أقرأ في كتاب مفتوح ــ قد ثبت لدي آنذاك أن إلهاً رحيماً قد مر بيده الحانية فوق جراح قلبه .

ثم نهض بمهابة ملحوظة ودعاني بحركة مألوفة من رأسه إلى أن ألحق به إلى جناحه : كان يمشي بخطى متزنة متميزة وهو الذي تعود المشي بخطى سريعة ... ثم التفت راجعاً إلى الخزانة ليأتي بزجاجة من الخمرة المعتقة وحملها إلى مكتبه متأنياً ، فاستغربت ذلك منه وبدا على زوجته أنها تلحظ شيئاً من الغرابة في مسلكه فرفعت عينيها عما كانت تخيطه ولحظت بفضولية صامتة تصرف زوجها (المدروس) الغريب المخالف لما هو مألوف لديها حينما نتوجه إلى العمل .

كان المكتب على عادته مغموراً بالظلمة ينتظرنا بإلفته

المسائية ؛ ولم يكن هناك إلا المصباح يرسم دائرة ذهبية حول رزمة الأوراق البيض الجاهزة للكتابة . جلست في مكاني المعهود وقرأت الجمل الأخيرة من المخطوط . كان معلمي دائماً بحاجة إلى الإيقاع كي يستجمع أفكاره ويبدأ الإملاء كحاجة العازفين إلى (معيار النغم) ليضبطوا عليه أوتارهم . ولقد تعودت منه أن يعيد تلاوة الجملة الأخيرة قبل أن يبدأ الإملاء ؛ ولكنه لبث صامتاً هذه المرة . كان الصمت يسود أرجاء الغرفة وكأن الجدران تحط بثقلها على رؤوسنا . وبدا لي أن معلمي لم يكن قد أخذ أهبته بعد ، إذ كنت أسمع وقع خطواته تروح وتجيء بعصبية واضحة . قال لي : «أسمعني الجملة الأخيرة مرة ثانية ! » ، ولحظت باستغراب نبرة صوته التي تشي بالانفعال والاضطراب .

أعدت على سمعه المقاطع الأخيرة فسرعان ما راح يتلوها معي ... ثم بدأ يملي بلهجة متقطعة متوترة سريعة مغايرة للهجته المعهودة . وبخمس جمل فحسب كان قد أنجز تركيب

(المشهد) الذي عرض فيه وصفاً للأوضاع الثقافية التي سبقت ولادة فن (الدراما) ، فكان هذا الوصف أشبه بصورة جدارية أو لوحة تاريخية لتلك المرحلة ؛ ثم تناول تطور المسرح ذاته الذي عرف الاستقرار فبنى لنفسه (مأوى) وصارت له حقوقه وامتيازاته المكتوبة بعد مرحلة من التشرد والتنقل على ظهور (العربات)... كانت المسارح الأولى كمسرح (الوردة) ومسرح (الحظ) ألواحاً خشبية بكرا ، تدور فوقها عروض مسرحية فجّة ... ثم ما لبث الصنّاع المهرة أن قاموا بتفصيل قوالب خشبية جديدة تلائم جسد الشعر المسرحي الذي كان ينمو ويتطور في الخفاء : فعلى ضفاف نهر التايمز وعلى أرض موحلة ، رطبة ، هشّة ، وفوق مجموعة من الأوتاد ، انتصب البناء الخشبي غير المصقول ببرجه السداسي الضخم ؛ إنه مسرح (غلوب) الذي على خشبته ظهر (المعلم) شكسبير . وهكذا قام هذا المسرح ضارباً بجذوره في الأعماق الموحلة ، شأنه شأن زورق من زوارق القراصنة طوّحَ به البحر ورايته الحمراء المنتصبة تخفق على رأس الصارية .

أما الصالة فتحتشد فيها الغوغاء صاخبة صخب الناس في المرافىء؛ لقد نفد صبرهم، فهم يطلبون البدء بالتمثيل فيضربون الأرض بأقدامهم ويحدثون ضجيجاً بمقابض السيوف ... ثم تضاء خشبة المسرح بشموع أمامها ويتقدم أشخاص بألبسة متواضعة ليبدؤوا تمثيل مسرحية لعلها مرتجلة .

وأنا مازلت أذكر إلى اليوم ما قاله معلمي ها هنا بنصه : « ... وبغتة تفجّرت العبارات تفجّر العاصفة وكأنها بحر من الانفعال لا حدود له، يرسل بأمواجه الحمر من فوق تلك الخشبة متجاوزاً حدود الزمان والمكان ... إنها أمواج من الانفعال لا تنفد ولا يسبر غورها، وهي أشد ما تكون جديةً وصفاءً وتنوعاً بحيث تعرض عليك أصدق صورة، وأوضح لوحة لما يمور في قلب الإنسانية : إنه مسرح انكلترة، إنها دراما شكسبير » .

وبعد أن أملى أستاذي هذه الكلمات بلهجة قوية، توقف بغتة عن الاسترسال في عرض هذا الموضوع؛ وتبع

ذلك صمت طويل ثقيل. التفتُّ إليه قلقاً فرأيته واقفاً وقد ألقى بيديه على الطاولة؛ وهذا موقف ألفته منه حينما يكون منهكاً. ولكن توتره حينذاك كان فيه ما يرعب... فقفزت وأنا أخشى أن يكون قد أصابه مكروه وسألته قلقاً: هل نقف عن العمل؟ نظر إلي أول الأمر مبهور الأنفاس جامداً غائباً عني، ثم ما لبث أن حرك بؤبؤ عينيه ذا الزرقة الصافية وانبسطت شفتاه مقترباً مني ليقول لي وهو ينظر إلي بإلحاح:

ـــ والآن ألم تلحظ شيئاً ما؟

أجبته بصوت متردد:

ـــ ماذا تعني؟

تنفس الصعداء وابتسم ابتسامة خفيفة. وكان قد مضى علي شهور لم أرَ فيها لدى معلمي تلك النظرة الشاملة العذبة الحانية. وقال لي:

ـــ لقد انتهى الجزء الأول.

وكتمت بصعوبة صرخة فرح؛ فلقد أثارت لدي المفاجأة انفعالاً عظيماً . ولست أدري كيف لم ألحظ أن الجزء الأول قد انتهى؛ فهيكل الكتاب كان بين أيدينا، وخطواته تتسلسل على نحو رائع بادئة بالماضي البعيد منتهية إلى مرحلة التأسيس التي ستعرض فيما يلي من الكتاب أعمال مارلوي وبن جنسون وشكسبير وأضرابهم وهم يعبرون ظافرين عتبة الجزء الثاني .

وهكذا ولد الكتاب ... فأسرعت أعد صفحاته . كان الجزء الأول يعد مئة وسبعين صفحة بخط دقيق؛ وهو الجزء الأكثر صعوبة مما سيليه . هذا وسننعم في الجزء الثاني بمزيد من الحرية في التأليف والعرض لم تتح لنا في الجزء الأول إذ كنا محكومين بالوثائق التاريخية نلملمها ونؤلف فيما بينها . على كل حال، إن أستاذي مصمم على إنجاز كتابه، أي (كتابنا)، لا شك في ذلك .

والراجح أني استرسلت في المرح الصاخب والفرح

المعربد مدفوعاً بزهـوي وإحساسي بالسعـادة... والحق أن حماستي اتخذت في التعبير عن نفسها مظاهر غير مألوفة لدى أستاذي، فلقد كان يلاحقني بنظراته وهو يبتسم حينما كنت أكرر قراءة الجمل الأخيرة أو أعد الصفحات بسرعة وأتحسسها بيد الحب وأنا أتخيل سلفاً المدة اللازمة لإنجاز الكتاب كاملاً. وأغلب الظن أن معلمي كان يرى زهوه المكبوح الكامن في أعماقه يتجلّى في فرحي أنا... فكان ينظر إلي بمودة ورقّة وهو متألق الوجه.

اقترب مني ببطء ويداه ممدودتان وأمسك بيدي وراح يتأملني وهو جامد أمامي. وراحت حدقتا عينيه ـــ اللتان لا تلمعان إلا من حين إلى آخر كنـار تشتعـل وتخبـو ـــ تكتسبان حيوية وبريقاً بزرقتهما الصافية، هاتان العينان اللتان تحكيان دون سواهما عمق الماء وصفاءه كانتا تمثلان عمق المشاعر الإنسانية. ولقد نفذ هذا الإشعاع الأزرق المنبعث من قلب حدقتيه إلى كياني فهزه... وشعرت بأن هذه الموجة

الحارة النابعة من عينيه تنفذ إليّ بلين ورفق لتنتشر وتمتد وتذيع في نفسي فرحاً عريضاً غريباً: لقد تفتح قلبي بغتة واتسع صدري بفعل سحر تلك النظرة الطاغية وشعرت، بفرح رائع يزدهر في كياني.

وقال لي في غمرة هذه اللحظات الرائعة:

ـــ لم أكن قادراً أبداً من دونك على الشروع في هذا العمل. أنا لن أنسى ذلك. لقد بعثت النار في رماد خمولي فأنقذتني. نعم لقد أنقذت ما تبقى من حياتي الضائعة المهدرة. نعم أنت وليس أحد سواك! لم يحسن إلي أحد كما أحسنت، ولم يمد إلي أحد يد العون بصدق وإخلاص كما مددت... لهذا سأزيح حجاب (الكلفة) فيما بيننا ولن أخاطبك بصيغة التفخيم بل بضمير المفرد وأقول: الشكر لك أنت. والآن هيا فلنمضِ معاً ساعة كأننا أخوان.

وقادني برفق نحو الطاولة وأحضر زجاجة الخمر التي كان قد هيأها... وكان على الطاولة قدحان؛ ولعله كان يريد

أن يعبر عن امتنانه وشكره فخصني بهذا (الاحتفال) الرمزي. كنت أشعر بفرح عميق، فلا شيء يهز أعماق النفس مثل تحقيق مباغت لرغبة مضطرمة. ولقد وجد (امتنانه) أجمل بادرة يستطيع التعبير بها على نحو ملموس عن ثقته بي، هذه البادرة التي كنت أطمح إليها في لا شعوري. وحينما هدم جدار (الكلفة) فيما بيننا كان قد تجاوز فارق السن الكبير بيني وبينه، ذلك الفارق الكبير الذي لم يكن من السهل تجاوزه.

ها هي ذي زجاجة الخمر تنتظرنا؛ وهي (العرّاب) الذي ما زال صامتاً والذي كنت أرجو منه أن يطامن إلى الأبد مشاعري القلقة فيهبني راحة اليقين. كان قلبي يعربد فرحاً عربدة الخمرة في الزجاجة... ولكن عقبة صغيرة عملت على تأخير اللحظة المرتقبة المهيبة؛ فالزجاجة مسدودة ولم يكن أمامنا مفتاح لها. وهمّ أستاذي بالنهوض ليأتي بمفتاح، ولكني وقد عرفت نيته هرعت مسرعاً نافد الصبر إلى غرفة الطعام متحرقاً في انتظار تلك اللحظة التي كنت أود منها أن تهدىء

قلبي وتؤكد لي على نحو قاطع تلك المودة التي يكنها لي معلمي .

ولدى اجتيازي الباب مسرعاً ووصولي إلى الممشى المعتم اصطدمت في الظلام بـ(جسمٍ) طري ترنح أمامي بفعل الصدمة ... إنها زوجة معلمي التي كانت ــ دون شك ــ تسترق السمع على الباب . واستغربت منها أنها لم تصرخ من جراء الصدمة بل تراجعت دون أن تنبس ؛ أما أنا فكنت عاجزاً عن الإتيان بأية حركة ، إذ تملكني الخوف فأخلدت إلى الصمت . ودام ذلك لحظات كنا فيها كلانا صامتين مطرقين خجلاً : أما هي فلقد فوجئت بأنها ضبطت بالجرم المشهود وهي تتجسس ؛ وأما أنا فلقد جمدتني المفاجأة المباغتة . وتناهى إلى سمعي بعد ذلك وقع خطى خفيفة في الظلام ثم أشعل النور فلمحتها شاحبة الوجه ولكنها متحدية مغرية وهي تسند ظهرها إلى الخزانة . وراحت ترمقني بنظرة فاحصة حادة ؛ وكان في وقفتها الثابتة شيء ما لم أدركه على حقيقته وكأنه الإنذار والتهديد ... لكنها لم تفه بكلمة .

ووجدت مفتاح الزجاجة بعد أن بحثت عنه في الظلام بيدين مضطربتين. كان علي أن أمر بجانبها مرتين فلمحت نظرتها المحدقة المتجهمة القاسية قسوة الخشب الصقيل. لم يكن في منظرها ما يدل على خجلها من أنها ضبطت وهي تسترق السمع وراء الباب؛ بل كان الأمر على العكس إذ رأيت في نظرتها النارية العدائية الملحة تهديداً لا أقدر على تفسيره... نعم كان موقفها المتحدي ينبىء عن عزمها على عدم التخلي عن أسلوبها غير اللائق في استمرارها في متابعتي ورصد حركاتي على هذا النحو. كان هذا التصميم الفوقي المتسلط يقلقني فخضعت على الرغم مني لسلطان هذه النظرة المتوعدة المسلطة عليّ. وحينما تسللت أخيراً بخطى متعثرة نحو غرفة معلمي الذي كان يمسك بزجاجة الخمر بين يديه وهو نافد الصبر... حلّ محل ذلك الفرح العظيم الذي كنت قد عشته لحظات معدودة همٌّ مقلق غريب.

أما معلمي فكان ينتظرني خالي البال! ونظر إلي نظرة

تفيض صفاءً وسلاماً ! ولطالما حلمت بأن أراه على هذه الحال وقد تبددت سحب الشقاء عن وجهه ؛ ولكن لساني انعقد عن الكلام حينما رأيته ــ لأول مرة ــ والطمأنينة والغبطة ترفرفان على محياه الذي توجه به نحوي بحب ومودة . نعم كان فرحي العميق يتبخر من منافذ خفية ؛ كنت مرتبكاً خجلان وأنا أصغي إليه وهو يشكرني بلهجة أليفة خالية من المجاملة ... ثم راحت الأقداح ترن بصوتها الفضي ونحن نتبادل الأنخاب . وقادني إلى (الديوان) وقد لف كتفي بذراعه برفق ؛ وجلسنا متقابلين وقد أرخى يده على يدي . كانت هي المرة الأولى التي أحس فيها إحساساً واضحاً بصراحته وعفويته . ولكنني كنت عاجزاً عن الكلام ، وكانت عيناي ــ على الرغم مني ــ تتوجهان صوب الباب وأنا خائف من أن تكون زوجته تسترق السمع من ورائه . كان يدور في خلدي دائماً أنها تسمع كل كلمة يقولها لي وكل كلمة أرد بها عليه . ترى لماذا يحدث ما يحدث في هذا اليوم دون غيره ؟!

وقال لي بغتة وهو يلفني بتلك النظرة الدافئة : «أود في هذا اليوم أن أحدثك عن نفسي ، عن مرحلة شبابي» . التفت إليه وقد تملكني الرعب وأنا أشير إليه بحركة من يدي ترجوه ألّا يفعل ، فما كان منه إلا أن نظر إلي نظرة ملؤها الدهشة . قلت له متلعثماً :

ـــ اعذرني . لا تفعل ذلك في هذا اليوم . لا تفعل .

كنت لا أقوى على احتمال افتضاح أمره أمام (جاسوس) كنت مضطراً إلى إخفاء وجوده عنه . وسألني بلهجة استياء خفيف :

ـــ ما بكَ ؟

أجبته وأنا أنهض مضطرباً :

ـــ أعذرني فأنا متعب ! ولا أقوى على الاحتمال . أظن ... أظن أن من الخير لي أن أنصرف .

وبينما كنت أنظر إليه انحرفت نظرتي على الرغم مني نحو الباب حيث كنت أتوقع وجود تلك الفضولية الغيرى المعادية

وهي تترصدني دائماً متخفية في شباكها ... ثم نهض أستاذي متثاقلاً وقد خيمت بغتة على وجهه سحابة من الإعياء. قال لي وهو يمسك بيدي التي أثقلها توتر خفي:

ـــ أتود حقاً أن تنصرف الآن ... وفي هذا اليوم ذاته ؟!

وترك يدي تفلت من بين يديه وكأنها قطعة من الحجر ثم قال متنهداً بلهجة تنم على خيبة الأمل:

ـــ هذا مؤسف . سيكون من دواعي سروري البالغ أن يتاح لي مرة واحدة التحدث إليك بحرية وصراحة . يا للأسف .

وقد خيمت هذه الزفرة العميقة لحظات في جو الغرفة كأنها فراشة سوداء . كنت أشد ما أكون خجلاً وارتباكاً وخوفاً غامضاً . وانسحبت بخطى متعثرة وأغلقت الباب ورائي بهدوء .

٥

تلمست طريقي بمشقة إلى أن وصلت إلى غرفتي

فارتميت على السرير ولكن لم أجد إلى النوم سبيلاً . لم يكن قد سبق لي أن شعرت على هذا النحو من الوضوح بأن منزلي ذا الجدران الرقيقة (معلق) فوق منزل أستاذي ، وأن (أرضية) خشبية سوداء فحسب تفصل فيما بيننا . وها أنذا الآن أحس بشدة وحدّة إحساس المبهور بأن هذين المخلوقين يسهران (تحتي) ... كنت أراهما وأسمع صوتيهما بعين الخيال وأذنه : أما هو فيروح ويجيء الآن من تحتي في غرفته مهتاجاً ... وأما هي فتجلس صامتة في مكان ما أو تتلصص كروح هائمة . ولكنني أعلم أن عينيها مفتوحتان وأن سلوكها المتجسس يبعث الرعب في نفسي؛ وكأن كابوساً قد حط عليّ فشعرت معه بغتة بأن منزلي الصامت الكئيب يثقل علي بأشباحه وظلامه ... رميت عني الغطاء وأحسست باللهيب في يديّ . وتساءلت قائلاً : ماذا فعلت بنفسي ؟ لقد كنت على مقربة من السر حينما كانت أنفاسه الحارة تلفح وجهي ... وها هو ذا الآن يبتعد عني مرة ثانية !

ولكن (شبحه) الصامت الكامد ما زال يروح ويجيء

وهو يتمتم ... وإني لأستشعره وهو في منزله كما أستشعر الخطر زاحفاً يدب دبيب هرة بقوائمها الخفيفة ... تقدم وتحجم وتقفز ، تتمسح بك دائماً لتثير فيك الرعشة بملمس فروها الأملس الدافىء . نعم كنت أعاني طوال الليل نظرة أستاذي ، تلك النظرة الطاغية الرقيقة رقة يده الممدودة كما أعاني نظرة زوجته ، تلك النظرة الحادة المهددة المخيفة . ما الذي يمكن أن أفعله مع سرهما الدفين هذا ؟ لماذا يريد لي هذان المخلوقان أن أتخبط كالأعشى في خضم ما يعانيان من ألوان العذاب ؟ لماذا يراد لي أن أتورط في المنازعات الخفية القائمة فيما بينهما ؟ ولماذا يصر كل منهما على شحني بألوان الغضب والكراهية ؟

كنت أحس بالحمى تلهب رأسي ... نهضت من فراشي وفتحت النافذة . كانت المدينة ما تزال نائمة هادئة يلفها صحو الصيف ؛ وكانت بعض النوافذ تشع منها أضواء المصابيح ... لعل وراء هذه النوافذ أناساً يتجاذبون أطراف حديث أليف ، أو لعل وراءها من يقرأ في كتاب أو يصغي إلى

موسيقى عذبة تدفىء القلب ؛ ولعل وراء أطر بعض النوافذ من يخلد إلى نوم مريح. نعم كان يخيم فوق هذه السطوح الساكنة ــ وكأن القمر يسبح وسط هالة فضية ــ سكينة عذبة وهدوء صافٍ مفعم بالحب والوداعة... وراحت الساعة تعلن دقاتها اللطيفة الإحدى عشرة فتتلقفها آذان الناس الحالمين أو الساهرين. ولكني وحدي في هذا البيت أشعر بأن هناك من لا يزال يترصدني من حولي، وبأني محاصر بطائفة من الأفكار الغريبة الشريرة. كنت في أعماقي أجهد على نحو محموم في فهم هذا الخليط من الإشكالات المبهمة.

وبغتة انتفضت مذعوراً إذ سمعت وقع خطى على السلم؛ وانتصبت لأحسن الإصغاء. نعم لقد كان هناك من يصعد درجات السلم متلمساً طريقه كالأعمى بخطى حذرة مترددة متعثرة: كنت قادراً على تمييز (الأنين) الأصم الذي يصدره خشب الدرج حينما يداس. وكان من الواضح أن الخطى متوجهة صوب منزلي فلا أحد يسكن معي تحت هذا

السقف سوى تلك العجوز الصماء التي تغطّ في نومها منذ أول الليل ؛ وهي لم تتعود استقبال أحد . ترى هل كان ذلك الشخص معلمي ؟ كلا فخطواته كما عهدتها سريعة موقعة ... وما أسمعه الآن خطوات مترددة جبانة . ربما كان القادم دخيلاً أو مجرماً ، أما أن يكون صديقاً فلا . ورحت أصغي بتوتر بلغ من شدته حداً جعل أذنيّ تطنان ... وأحسست بغتة ببرودة الصقيع تسري في ساقيّ العاريتين .

هذا قفل الباب يصر بخفة : إذن لقد وصل إلى الباب ذلك الزائر المشبوه . وشعرت بلفحة الهواء على أصابع قدمي العاريتين مما جعلني أتبين أن الباب الخارجي كان مفتوحاً ؛ وأنا أعلم أنه لا مفتاح للباب إلا مع معلمي ! على كل حال إذا كان هو القادم فلماذا هذا الغموض والغرابة في مسلكه ؟ ترى هل كان قلقاً علي فهو يريد معرفة ما حل بي ؟ ولماذا يتردد هذا الزائر الملغز في المدخل ؟ لقد تجمدت بغتة خطاه المتلصصة الزاحفة ! أما أنا فلقد جمدني الرعب فكدت أصرخ ولكن

كأن شيئاً ما كان يخنق حنجرتي. وأردت أن أفتح الباب فعجزت عن ذلك إذ تسمرت قدماي على الأرض. لم يكن بيني وبين هذا الزائر المقلق سوى حاجز رقيق... ولكن لم يخطُ أحد منا خطوة نحو الآخر.

ورن جرس الساعة معلناً الحادية عشرة والربع، مما وضع حداً لذهولي ففتحت الباب... وكان معلمي أمامي يحمل شمعة في يده. راح تيار الهواء المنبعث من فتح الباب المفاجىء يرنح لهب الشمعة الأزرق الباهت؛ ومن خلف جسم الأستاذ كان ينتصب ظله العملاق على الجدار وهو يترنح يميناً وشمالاً ترنح السكران. وحينما رآني ندّت عنه حركة فانطوى على نفسه كنائم لفحه تيار هوائي مباغت فشد الغطاء على جسده بحركة لا إرادية وهو يرتعش. ثم ما لبث أن انكفأ، بينما كانت الشمعة تهتز في يده وهي تذوب. كنت أرتعد مذعوراً أيما ذعر فلم أقوَ إلا على أن أتمتم قائلاً: «ما بك؟» فنظر إلي وهو صامت؛ فلقد كان عاجزاً مثلي عن الكلام... ثم وضع الشمعة على

الطاولة الصغيرة فسرعان ما هدأ تراقص الظلال على الجدران كخفاش سكنت حركته. وتمتم يقول: «كنت أريد... كنت أريد..» وما لبث أن خانه صوته مرة ثانية. كان يقف أمامي خافض البصر كلص ضبط متلبساً. وكان الموقف لا يُحتمل مع هذا الغم والضيق وأنا في قميصي أرتجف من البرد وهو منكمش على نفسه غارق في خجله.

وبغتة انتفض هذا (الشبح) الواهن واقترب مني وهو يبتسم ابتسامة خبيثة رعاعية، ابتسامة لا تلمع إلا في عينيه هو وكأنها تهدد بينما كانت شفتاه مزمومتين، ابتسامة تتوجه إلي ساخرة وكأنها قناع عجيب غريب... ولبث برهة أمامي وهو جامد. وراح يقول وهو يفح بصوت واخز كأنه يصدر عن لسان أفعى:

ــ كل ما كنت أريد أن أقوله لك... أنه من الخير لنا ألّا نرفع (الكلفة) فيما بيننا... فهذا... فهذا لا يليق بتلميذ وأستاذه. أنت تدرك ذلك... لا بد من التـزام الحدود... الحدود.

كان في الوقت نفسه ينظر إلي ــوكأنه يلطمني ــ نظرة البغضاء الشديدة والخبث العدائي ؛ حتى إن أصابع يده قد تقبضت وكأنها المخالب ؛ فما كان مني إلّا أن تراجعت مترنحاً ... ترى هل أصابه الجنون أم أنه سكران ؟ إنه أمامي وقبضته مشدودة وكأنما يود أن ينهال على وجهي ضرباً ولكماً . لكن ذلك الموقف الرهيب لم يدم إلا لحظة إذ سرعان ما انكفأت نظرته العدائية واختفت بين أجفانه . واستدار وهو يتمتم بما بدا لي أنه اعتذار ، ثم أمسك بالشمعة فرأيت (ظله) الذي كان منطوياً يتحرك ــوكأنه عفريت أسود ــ يسبق جسده ويسرع إلى عتبة الباب .

وسرعان ما اختفى دون أن أجد القوة على التفوه بكلمة . وانغلق الباب وراحت درجات السلم تئن متألمة تحت وقع خطاه المتهافتة .

○

لن أنسى ما حييت تلك الليلة ؛ فلقد انتابني غضب ثقيل وحشي مشوب بيأس قاتل لا مخرج منه . كانت أفكاري المهوشة تغزو رأسي بسرعة كأنها الصاروخ . وسألت نفسي في غمرة العذاب الذي كان يفترسني : ترى لماذا يعمل معلمي على تعذيبي ؟ لماذا يكرهني إلى هذا الحد فيتسلل في ظلام الليل إلى منزلي لا لشيء ... إلا ليصفعني على نحو عدائي بمثل تلك الإهانة ؟ ماذا فعلت له ؟ وما الذي كان علي أن أفعله ؟ كيف لي أن أرضيه وأنا لا أدري بماذا أسأت إليه ؟ وهكذا ارتميت في سريري محموماً ثم نهضت واختفيت تحت الغطاء ، ولكن صورة (شبحه) كانت ما تزال ماثلة أمامي : فها أنذا أراه يتقدم خلسة حائراً محبطاً ومن خلفه (ظله) المرعب الغريب المحير يتراءى على الجدار .

واستيقظت صباح اليوم التالي بعد أن نعمت بشيء من الراحة فخيل إلي أول الأمر أني كنت في حلم . ولكن ها هي ذي البقع الدهنية الصفراء للشمعة الذائبة ما تزال على الطاولة

الصغيرة، وفي وسط الغرفة المغمورة بالضياء ما تزال الذكرى الرهيبة تجعلني أتصور دائماً ذلك الزائر الليلي الذي تسلل إلى غرفتي تسلل اللصوص. لم أغادر منزلي فلقد كان خوفي من لقائه يشل كل قواي. حاولت أن أكتب أو أقرأ فلم أستطع ذلك. كنت منهك الأعصاب أحس بأني على شفا توتر عصبي بالغ قد ينفجر في أية لحظة نحيباً بل عويلاً. كانت أصابع يدي ترتعش ارتعاش أوراق الشجر وأنا عاجز عن تهدئتها... أما عضلات ساقيّ فقد أصابها الوهن وكأن أوتارها قد قطعت. ما العمل؟ هكذا كنت أتساءل دون انقطاع حتى أصابني الإعياء، وراح الدم يغلي في رأسي ليزيغ مني البصر. لكن المهم في الأمر ألّا أغادر المنزل كيلا أفاجأ بلقائه قبل أن أسترجع طمأنينتي وتعود العافية إلى أعصابي! ارتميت ثانية على السرير دون أن أغتسل جائعاً مضطرباً مشوشاً ورحت أخمن ما يجري خلف ذلك الحاجز الخشبي الخفيف الذي يفصلني عن معلمي: ترى أين هو الآن وماذا يفعل؟ هل أفاق من نومه؟ وهل يعاني اليأس كما أعانيه؟

وانتصف النهار ومازلت متمدداً على السرير تأكلني نار الغموض والبلبلة ... وسمعت وقع خطى على الدرج فسرعان ما توفزت أعصابي وتحفزت؛ ولكن هذه الخطى رشيقة عفوية تتسلق باندفاعها درجتين معاً. وسمعت الباب يقرع فقفزت دون أن أفتح وسألت:

ـــ مَن هناك ؟

أجابت زوجة معلمي بلهجة مشوبة بشيء من الغضب:

ـــ لماذا لم تنزل لتناول طعام الغداء... هل أنت مريض ؟

تمتمت مرتبكاً:

ـــ كلا. كلا. سألحق بكم حالاً.

كان علي أن أرتدي ثيابي مسرعاً وأنزل لتناول الغداء؛ ولكن كان لا بد لي من الاتكاء على (الدرابزين) وأنا أنزل إذ كانت عزيمتي واهنة وأعضائي منهكة ... ودخلت قاعة الطعام.

كانت زوجة معلمي تجلس إلى المائدة تنتظرني. حيتني وهي تلومني برفق على أني جشمتها عناء دعوتي إلى الغداء. كان كرسي الأستاذ على المائدة خالياً فشعرت بدمي يضج في رأسي؛ فما الذي يعنيه الغياب غير المتوقع؟ أكان يتهيب هو كذلك لقائي كما أتهيبه؟ أيخجل مني فلا يريد منذ الآن أن يجالسني على مائدة واحدة؟... وأخيراً قررت أن أسأل عن معلمي فما كان من زوجته إلا أن نظرت إلي مدهوشة وقالت:

ــ ألا تعلم بأنه قد سافر هذا الصباح بالقطار؟

ــ سافر؟ وإلى أين؟

عبس وجهها على الفور وقالت:

ــ لم يكلف نفسه عناء إخباري. لعل هذه السفرة كسفراته المعهودة.

والتفتت نحوي بغتة وهي تقول متسائلة بلهجة جادة:

ــ أحق أنك لا تدري؟ لقد زارك الليلة الماضية... وكنت أظن أنه راح يستأذنك. ما أغرب هذا. نعم ما أغرب ألّا يخبرني ولا يخبرك أنت!

ـــ يخبرني أنا ؟!

صرخت بذلك وأنا لا أملك إلا صرخة الدهشة تلك .

وقد عملت هذه الصرخة التي أطلقتها في غمرة خجلي وضياعي على تنفيس كل ما كان مكبوتاً في نفسي طوال الساعات الماضية ... ثم كان انفجار مباغت : انفجار نحيبٍ وإجهاش عصبي ساخط ... كنت مفعماً باليأس الضائع وبالألم الولهان فتفجر من جراء ذلك طوفان من الكلمات والآهات المختلطة . ورحت أبكي بل إن فمي المرتعش أخذ يفرغ كل ما تراكم في نفسي من آلام بدأت أصبها في نحيب هستيري . كنت أضرب المائدة دون أن أعي ؛ وأرخيت العنان في غمرة سخطي لكل ما كنت قد حضنته في قلبي منذ أسابيع ليتفجر تفجر العاصفة شأني شأن طفل سريع الغضب فقد زمام نفسه فسالت دموعه غزيرة . ولقد خفف عني هذا البوح العفوي المتدفق ولكنني شعرت في الوقت ذاته بخجل لا حدود له من أني فضحت نفسي عارية أمامها .

سألتني :

ـــ ما بك بحق السماء ؟!

ونهضتْ بغتة وقد بان عليها الاضطراب الشديد ... ثم اقتربت مني مسرعة وقادتني من المائدة إلى (الديوان) وأضافت تقول :

ـــ استلق ها هنا وانعم بالراحة .

وأخذت تداعب لي يديّ وتمر بيديها على رأسي بينما كانت الرعشات العنيفة تهز جسمي المضطرب . قالت لي :

ـــ لا تعذب نفسك يا عزيزي . لا تعذبها . أنا أعرف ما أنت فيه . لقد توقعت كل ذلك .

كانت ما تزال تمسح رأسي بيديها ولكن سرعان ما اكتسب صوتها نبرة جافة وهي تقول :

ـــ أنا التي أدري كيف يتصرف هو لإزعاج الناس . لا أحد يعرف ذلك كما أعرفه . ولكن ، صدقني فيما أقول ،

كنت أريد دائماً أن أحذرك حينما كنت أراك تثق به كل الثقة وهو الذي لا يستقر على حال. أنت لا تعرفه فلست إلّا غراً أعمى. إنك مازلت بريئاً حتى هذه الساعة فلا تشك في أحد؛ بل لعلك بدأت اليوم تعي بعض الأمور... إن صح ذلك فهذا خير له ولك.

وظلت منحنية علي بمودة وحنان. كان يبدو لي أن كلماتها ومداعبة يديها المهدئة المخففة لآلامي مصدرها نبع لا ينضب من الرفق والرقة. لقد أعاد لي العافية أن ألتقي بعد طول انتظار نفحة عطفٍ ووداد، وأن أنعم بوجود يد امرأة حانية تكاد تكون لي أمّاً. لعل ذلك يرجع إلى حرماني الطويل من ذلك العطف؛ وها هي ذي آلامي تتبخر وأنا أرى عبر غمامة الحزن ذلك الاهتمام الذي توليني إياه امرأة عطوفة مشغولة بأمري.

ولكن على الرغم من كل شيء كنت أشعر بالضياع والخجل من أن حالي قد افتضحت في هذه الأزمة وأني قد

استسلمت إلى يأسي على هذا النحو ! وانتصبت بمشقة لأطلق على الرغم مني موجة من الصراخ المتهافت المتقطع شاكياً من كل ما فعله بي أستاذي مشيراً إلى طردي واضطهادي ثم العدول المفاجيء عن ذلك إلى تقريبي ومصالحتي. وشكوت لها كذلك، ذلك (الجلاد) الذي كان يقسو علي دون سبب أو مبرر وكنت مع هذا مشغوفاً به... نعم كنت حينا أكرهه محباً له، وكنت حينا أحبه كارهاً إياه. وعاودني ثانية هياجي وانفعالي حتى اضطرت إلى تهدئتي فراحت تدفع بي مترفقة بيديها اللطيفتين لترجعني إلى (الديوان) الذي كنت قد غادرته وأنا في فورة غضبي... ثم هدأ روعي فأمسكت هي عن الكلام مطرقة... وأدركتُ أنها كانت تعي كل شيء بل ربما كانت تعيه على نحو أفضل. ولفنا الصمت دقائق معدودة ثم نهضت وهي تقول :

ــ لا بأس. حتى الآن وأنت تتصرف تصرف الأطفال... كفاك ذلك وكن الآن رجلاً. انهض إلى الطاولة

وتناول طعامك . ليس في الأمر مأساة . كل ما هنالك شيء من سوء التفاهم سيتبدد .

وحينما صدرت عني بعض الحركات الموحية بالرفض أردفت تقول بحماسة :

ــ نعم سيتبدد كل ذلك ؛ فأنا لن أتركك في تمزقك وضياعك . لا بد من وضع حد لكل هذا . لقد آن الأوان لتعلمه كيف يملك قياد نفسه . أنت أطيب من أن تكون ضحية نزواته الخطرة . سأكلمه في ذلك . ثق بي . والآن هيا إلى المائدة .

وامتثلت لرغبتها طائعاً خجلاً ... وراحت تتحدث بسرعة وطلاقة في أمور عابرة شتى . كنت أشعر في أعماقي بالامتنان لها على أنها لم تكترث لذلك الانفجار الذي غلبني على أمري والذي سرعان ما صفحتْ عنه . وقالت لي بنبرة مقنعة إنها سوف تقوم غداً ــ الأحد ــ بصحبة الأستاذ (س) وخطيبته بنزهة على ضفاف بحيرة قريبة ولا بد لي من مرافقتهم

كي أروّح عن نفسي بعيداً عن كتبي ودراستي؛ فكل ما أعانيه من قلق وضيق ناجم عن الإرهاق وهيجان الأعصاب ... وستكون النزهة في الطبيعة أو السباحة كفيلة بأن تعيد العافية إلى جسدي. وقد وعدتها بأن أصحبهم. نعم فكل شيء خير من الوحدة وخير من البقاء في غرفتي بصحبة هذه الوساوس التي تهوّم في جنباتها.

وألحت علي قائلة:

ـــ إياك أن تبقى وحدك هذا اليوم. قم بنزهة. اركض وسلّ نفسك.

وقلت في نفسي: «ما أغرب أن تعرف ـــ وهي الغريبة عني ـــ أخفى مشاعري؛ نعم ما أغرب أن تعرف كل ما أحتاجه وكل ما يسيء إلي بينما أستاذي، رجل العلم، يجهلني بل يحطمني». ووعدتها بالاستجابة لنصائحها. وحينما نظرت إليها نظرة الشكر رأيت لها سحنة جديدة: نعم لقد اختفى من وجهها ما كان يظهر عليه في العادة من ملامح

السخرية والوقاحة مما يضفي عليه هيئة صبي سفيه غير مهذب... اختفى كل ذلك لتحل محله نظرة حانية مفعمة بالمودة... حقاً لم يسبق لي أن رأيتها على هذا النحو من الجدية.

وراح شعور غامض يثور في نفسي ليتساءل بحنين: «ترى لماذا لا ينظر هو إلي على هذا النحو من الطيبة؟ لماذا لا يدرك أنه يسيء إلي؟ لماذا لا يمسح على رأسي بيدين حانيتين مواسيتين كيديها؟». وأخذت أقبل بامتنان يدي تلك المرأة فتراجعت بهما باضطراب وبشيء من العنف وقالت لي بصوت هامس:

ـ لا تعذب نفسك.

ولكن سرعان ما اتخذت لهجتها سمة القسوة وانتصبت بغتة لتقول بنبرة خافتة:

ـ صدقني. إنه لا يستأهل كل ذلك!

وما كان لهذه الكلمة التي همست بها بنبرة لا تكاد تسمع إلا أن أحزنت قلبي الذي كان يوشك أن يهدأ .

○

كان ما قمت به بعد الظهيرة وفي المساء سخيفاً مضحكاً حتى إني بقيت أخجل من التفكير فيه على مدى سنوات ؛ بل إن إحساساً داخلياً بتبكيت الضمير كان يخنق أقل ذكرى تتصل بذلك الموضوع . واليوم ما عدت أخجل من تلك الحماقات ... لا بل أنا أفهم نفسية ذلك الفتى الجموح الذي كنت عليه ، ذلك الفتى الذي كان وهو فريسة هوى حائر يحاول أن يخفي عن نفسه تخبط مشاعره الخاصة .

وها أنذا أنظر إلى نفسي وكأني في طرف ممشى لا نهاية له أو كأني موضوع أمام عدسة منظار مقرب : إني أرى ذلك

الفتى اليائس المعذب يصعد إلى غرفته دون أن يعرف ما الذي سيفعله بنفسه ... وبغتة يخطف معطفه وينتحل لنفسه مسلكاً جديداً وهو يبحث في أعماقه عن مبادرات عنيدة . وها هوذا سرعان ما يجد نفسه في الطريق يخطو خطوات نشيطة قوية . نعم أنا أتعرف نفسي في هذا الشاب وأدرك كل أفكار ذلك الغلام المسكين الغبي المعذب الذي كنت عليه ... ولكن سرعان ما يتماسك ويتجلد ليقول لنفسه : « لا لن أهتم لمعلمي . فليتخطفه الشيطان ! لماذا أعذب نفسي بسبب هذا العجوز المجنون ؟ إن زوجة معلمي على حق . فلنفرح ولنستمتع .. وهيا إلى الأمام ! » .

وهكذا نزلت إلى الشارع لأعيش تلك الهزة العنيفة التي ستعمل على تحريري . نعم سأقوم بنزهة على الأقدام وسأنطلق هارباً على غير هدى هرب الجبان كيلا أقر بأن هذه الطمأنينة غير كافية لإسعادي وبأن كتل الجليد ما تزال تثقل قلبي . ما زلت أذكر كيف كنت أمشي متأبطاً عصاي وأنا أحدق في

وجه من أقابله من الطلاب . كانت تكمن في نفسي رغبة عنيفة في الشجار مع أي إنسان لأفرغ غضبي المزمجر المكبوت على رأس أول من تقع عليه عيني . ولكن من حسن الطالع أن أحداً لم يكلف نفسه عناء الالتفات إلي .

وتوجهت نحو المقهى حيث كان يجتمع أغلب الأحيان رفاقي من طلاب الكلية وفي نيتي أن أجلس إلى طاولتهم دون أن أدعى إلى ذلك كي أجد في أهون غمزة منهم ذريعة لتحديهم . ولكن مزاجي العدائي لم يجد له موضوعاً ينصب عليه . كان الجو في ذلك النهار صحواً فأغرى معظم الطلاب بالخروج إلى النزهات ؛ أما القلة القليلة من الطلاب الذين كانوا في المقهى فلقد حيتني بلطف وأدب فلم يجد هياجي المحموم متنفساً له . نهضت مستاء وتوجهت إلى أحد المرابع المشبوهة في الضاحية حيث كانت ثلة من رعاع المدينة الصغيرة تزدحم لتصغي إلى جوقة نسائية صاخبة ... وهم يشربون ويدخنون بفظاظة . تجرعت بسرعة قدحين أو ثلاثة ثم دعوت إلى مائدتي واحدة

من بائعات الهوى مع صديقة لها مثلها كالحة متبرجة... وشعرت بفرح مزيف في أني لفت الأنظار نحوي !

كنت معروفاً من قبل أهل المدينة الصغيرة الذين يعلمون أني (المريد) الأثير لدى الأستاذ؛ أضف إلى ذلك أن نسوة المربع كانت تفضحهن ملابسهن الفاجرة وسلوكهن المبتذل. وهكذا نويت نية حمقاء أن أنعم بهذه المتعة المجنونة المضحكة حينما وضعت نفسي مع سمعة أستاذي في ذلك الموضع الحرج. وقلت لنفسي: «ألا يلحظ هؤلاء الناس أني لا أقيم وزناً لأستاذي وأني لا أبالي بقدره وقيمته ؟!» ثم رحت أغازل وأداعب على الملأ تلك المخلوقة ذات الصدر الضخم على نحو يخلو من كل حياء وكياسة.

وكان سكرنا في البداية من قبيل التخابث المسعور ثم ما لبث أن صار سكراً حقيقياً فلقد شربنا ما هب ودب من أنواع الشراب وخلطنا النبيذ بالبيرة بغيرها ورحنا نصخب ونعربد بعنف حتى إن الكراسي من حولنا راحت تنقلب فأخذ

جيراننا يتراجعون حذرين. ولم أكن أشعر بالخجل من ذلك بل كنت أقول لنفسي وأنا على حالة من السخط المجنون: نعم سيعلم أستاذي بأني لا آبه له ولا أبالي به. أنا لست حزيناً ولا مهيناً بل الأمر على العكس.

وصحت وأنا أضرب الطاولة التي أخذت أقداحها تتمايل:

ـــ مزيداً ... مزيداً من الخمر.

ثم خرجت في آخر المطاف مع المرأتين ممسكاً بإحداهما بذراعي الأيمن وبالأخرى بذراعي الأيسر؛ ووصلت إلى الشارع الرئيس في ساعة النزهة المسائية المألوفة حيث الطلاب والصبايا والمدنيون والعسكريون يتسكعون متمهلين مستمتعين. وراح هذا (الثلاثي) يترنح شمالاً ويميناً وقد تملكه السكر ... وعبرنا الطريق إلى الرصيف صاخبين معربدين حتى إن عريفاً في الشرطة تقدم نحونا ثائراً وأمرنا أمراً عنيفاً بالتزام الهدوء.

أما ما حدث بعد ذلك فأنا عاجز عن روايته بدقة؛ فلقد انطمست ذاكرتي تحت وطأة ضباب الكحول؛ وكل ما أذكره أني تقززت عن المرأتين المترنحتين وكنت لا أكاد أملك وعيي فتخلصت منهما بعد أن أعطيتهما بعض المال ثم تناولت في مرابع شتى القهوة والكونياك ... ثم وقفت أمام مبنى الجامعة ورحت ألقي خطبة هجائية تناولت فيها الأساتذة، وقد تحلق الطلاب الشباب من حولي مبتهجين ... ثم رغبت في التوجه إلى أحد بيوت الدعارة مدفوعاً بدافع خفي غامض إلى تلطيخ سمعتي والإساءة إلى (معلمي). ولعل هذه الفكرة الحمقاء كان مبعثها غضب جامح مشوش! لكني لم أهتدِ إلى الطريق فتوجهت إلى بيتي وأنا أترنح على أسوأ حال. وتمكنت بمشقة بالغة من فتح الباب ونجحت في أن أجر نفسي حتى أول درجات السلم ... ولكن ما أن وصلت إلى باب منزل أستاذي حتى طارت سكرتي بغتة وكأني غصت في لجة ماء مثلج فقرأت في صفحة وجهي ــ وقد صحوت من سكري ــ صورة جنوني الساخط العاجز فأطرقت برأسي خجلاً وتسللت خلسة

إلى غرفتي منكمشاً على نفسي انكماش كلب ذليل كيلا يحس أحد بدخولي .

○

كنت قد نمت نوم الموتى ؛ وحينما استيقظت كانت الشمس تغمر أرض الغرفة بنورها لتصل إلى طرف سريري . نهضت مسرعاً وعادت ذكرى سهرة البارحة تنبعث شيئاً فشيئاً في رأسي المصدوع ؛ ولكنني نحيت جانباً كل إحساس بالخجل إذ صممت أن أتخلى عن خجلي . وهكذا رحت أحاول إقناع نفسي بأن أستاذي هو المسؤول وحده عما ارتكبت من حماقات . وجعلت أهدىء نفسي بأن ما حدث مساء البارحة لم يكن إلا تسلية يمارسها طالب ، تسلية مشروعة لإنسان أمضى أسابيع وأسابيع لم يعرف فيها إلا العمل الجاد . لكن هذا التبرير الخاص لم يشعرني بالراحة فنزلت وأنا مرتبك مشوش لأرى زوجة معلمي إذ تذكرت وعدي لها يوم البارحة بأن أصحبها في نزهتها .

ولكن ما أغرب ما تجري الأمور ! فما كدت ألمس مقبض الباب حتى قفزت ذكرى أستاذي في وجهي ومعها هذا الألم المحرق اللعين وذلك اليأس الساخط الذي طالما حاصرني . قرعت الباب بلطف فإذا زوجته أمامي وهي تنظر إلي بعذوبة غير مألوفة . وقالت لي بلهجة تعاطف تخلو من اللوم :

ــ ما هذه الحماقات التي ارتكبتها ؟ ولماذا تعذب نفسك على هذا النحو ؟

لبثت أمامها خجلاً مرتبكاً . لقد علمت إذن بمسلكي الطائش ... ثم وضعتْ حداً لحيرتي واضطرابي إذ قالت :

ــ فلنعد إلى رشدنا اليوم . سيأتي الأستاذ (س) وخطيبته في الساعة العاشرة ثم نركب القطار ثم نجدف ونسبح لندفن كل هذه الحماقات .

وتجرأت فسألت على غير جدوى بصوت مشوب بالقلق عن عودة معلمي ، فنظرتْ إلي دون أن تجيب ، فلقد كان سؤالي لا معنى له . ووصل الأستاذ (س) في العاشرة ؛ وهو

فيزيائي شاب يعيش في عزلة عن الوسط الجامعي لأنه يهودي ؛ وهو الوحيد الذي كان يعاشرنا في عزلتنا . كانت خطيبته معه أو عشيقته على الأرجح ؛ وهي شابة دائمة الابتسام ساذجة طائشة ، ولكنها صالحة كل الصلاح لمثل هذا النوع من النزهات الترفيهية ... وركبنا القطار أول الأمر ونحن نأكل ونثرثر ونتبادل الابتسام إلى أن وصلنا إلى ضفة بحيرة صغيرة في الضواحي القريبة . كانت أسابيع العمل المرهق التي عانيتها قد أفقدتني القدرة على الاستمتاع بمتعة المحادثة والمعاشرة حتى إن هذه النزهة كانت كافية لكي تبعث النشوة في نفسي وكأنها نشوة خمرة خفيفة فوارة . ولقد نجح رفاقي في النزهة بمرحهم ومسلكهم الطفولي البريء في إبعادي عن تلك (الدائرة) المظلمة المقلقة التي كانت تدور فيها أفكاري ؛ فما كدت أرى نفسي وسط هواء البرية المنعش حتى تجدد لدي الشعور بقواي ، فقمت بصحبة الفتاة على نحو عفوي بمسابقة في الجري فانبعث فيَّ ذلك الفتى النشيط العابث الذي كنت عليه .

وركبنا زورقين من شاطىء البحيرة. كانت زوجة أستاذي تجدف في زورقنا، وفي الزورق الآخر كان الأستاذ (س) يجدف مع صديقته. ولدى مغادرتنا الشاطىء استولت علينا الرغبة في الصراع، صراع التسابق... والحق أنه لم يكن هناك تكافؤ في الفرص إذ كان صديقانا يجدفان معاً بينما كانت زوجة معلمي تجدف وحدها فسرعان ما خلعت عني سترتي ورحت أمارس التجديف بالمجدافين بذراعين قويتين وضربات قادرة حتى نجحت في تجاوز الزورق المجاور... كانت تنبعث منا ومنهم تعليقات ساخرة بغية التحريض والتشجيع، وكان بعضنا يثير البعض الآخر غير مبالين بحرارة تموز المحرقة ولا بالعرق الذي راح يغمرنا. كنا قد اندفعنا أيما اندفاع بعناد وتحد مستسلمين إلى هوس الرياضة والرغبة في التغلب على الخصم... ثم اقتربنا من الهدف، وكان جزيرة صغيرة مشجرة وسط البحيرة؛ ورحنا نبذل مزيداً من الجهد المحموم إلى أن حطت مقدمة زورقنا على الرمل معلنة فوزنا بينما كانت زميلتي في الزورق في أوج نشوة النصر وقد استغرقتها حمّى التنافس

الرياضي. نزلت من المركب وقد بللني العرق وأحرقتني أشعة الشمس التي لم أكن قد تعودتها منتشياً بغليان دمي في عروقي وبفرحة الانتصار.

كان قلبي يخفق عنيفاً في صدري؛ أما ثيابي فقد التصقت بجسدي المبلل بالعرق. ولم يكن الأستاذ (س) بأوفر مني حظاً؛ فلقد كان نصيبنا كلينا ضحكاً ساخراً متحدياً تلقيناه من رفيقتينا بسبب إنهاكنا ومظهرنا الذي يثير الشفقة عوضاً عن أن نهنأ على أننا بطلان عنيدان... ثم أتيحت لنا فرصة للراحة والتبرد وخصصنا زاويتين، واحدة للرجال وأخرى للنساء، على أنهما خلوتان لخلع الملابس بين الأشجار ونحن نمرح ونمزح. وسرعان ما ارتدينا ثياب السباحة بينما كانت تلمع وراء الأغصان الملابس الداخلية البيض والأذرع العارية. وسبقتنا الرفيقتان فراحتا تخبطان في الماء بنشوة. ولحق بهما الأستاذ (س) إلى الماء إذ كان أقل مني تعباً؛ أما أنا ــ وقد أنهكني التجديف ــ فلقد شعرت بقلبي يخفق سريعاً بين

أضلاعي فاستلقيت طلباً للراحة في الظل ورحت أستمتع بمنظر السحب وهي تمر من فوقي منتشياً بالإصغاء إلى دمي وهو يسري ويعربد .

بعد دقائق معدودة ناداني صوت من الماء يقول : « هيا .. إلى الأمام ! مسابقة في السباحة . جوائز للسابحين وجوائز للغواصين ! » . لم أحرك ساكناً إذ كان يبدو لي أن بمقدوري أن أمكث مستلقياً على حالتي إلى الأبد وأنا أنعم بلذع أشعة الشمس اللطيفة على أديم جسدي ، تلك الأشعة التي كانت تنفذ من خلال أوراق الشجر فتبرد بنسمات الهواء الرخية التي تداعب جسدي بلطف .

ثم تناهى إلى سمعي رنين ضحكة وراح الأستاذ (س) يصرخ : « إن صاحبنا مضرب ! لقد جرنا عليه ! تعالوا خذوا هذا الكسول » . وسرعان ما سمعت حركة في الماء تقترب مني وصرخت زوجة معلمي إلى جانبي : « هيا يا عزيزي . مسابقة في السباحة ! يجب أن تلقنهما درساً » . لم أجب النداء إذ

كنت أستمتع بأنهم يبحثون عني ... «أين أنت يا صاح ؟» قالت لي ذلك وهي تجري على الرمل الذي يصر تحت قدميها العاريتين ... وبغتة انتصبت أمامي بقوامها الأهيف وقد التصق (المايوه) المبلل بجسدها الغلامي. قالت لي: «يا لك من عاجز كسول ! هيا انهض فرفيقانا هما الآن هناك أمامنا على شاطىء الجزيرة». كنت مستلقياً باسترخاء وأنا أتمطى بكسل فقلت لها: «أنا أشعر بالراحة ها هنا ... وسألحق بكم عما قليل». قالت لهما بصوت صارخ ضاحك: «إنه لا يريد» وهي تضم يديها على فمها كالقمع. أجابها الأستاذ من بعيد: «إرمي به في البحيرة. يا له من مختال مغرور !». وألحت علي وقد نفد صبرها قائلة: «هيا بنا ولا تخجلني أمامهما». ولكني اكتفيت بأن تثاءبت بكسل. حينئذ كسرت غصناً من شجيرة قريبة وكررت نداءها بلهجة المزاح الغاضب وقالت: «هيا بنا ! تحرك» وراحت تضربني بالغصن على ذراعي كي تحثني على النهوض. وقفزت لأن ضربتها كانت مؤلمة وقد تركت على ذراعي سمة بلون الدم. قلت لها بلهجة تجمع بين المزاح

والاستياء: «لن أنهض بعد الآن !» ولكنها غضبت غضباً جاداً فأمرتني تقول: «هيا ... في الحال !» . وحينما لم أتحرك على سبيل التحدي ضربتني ثانية على نحو أشد ضربة موجعة جارحة فقفزت على الفور ساخطاً كي أنتزع منها الغصن ... تراجعت ولكني أمسكت بها من ذراعها. وفي أثنـاء هذا الصراع على الغصن اقترب جسدانا الواحد من الآخر على نحو تلقائي . وبينما كنت ممسكاً بذراعها لويت لها مفصلها كي أكرهها على ترك الغصن فاستسلمت وهي تميل إلى الخلف مما أدى إلى تمزق الحامل الذي يعلّق (المايوه) بالكتف فانكشف الجانب الأيسر من صدرها عارياً وبرزت حلمة ثديها صلبة وردية متحدية. انخطف نظري على الرغم مني صوب هذه البؤرة بنظرة خاطفة؛ ومع ذلك أصابني الارتباك فأطلقت يدها المحتجزة وأنا في ضيق واضطراب . التفتت وقد احمر وجهها لكي تصلح ـــ ما أمكنـــ الحامل الممزق مستعينة بدبوس شعرها . كنت واقفاً أمامها لا أدري ما أقول ... وكانت هي

كذلك صامتة . وهكذا منذ هذه اللحظة ولد فيما بيننا قلق خفي مشترك صامت .

○

وتناهى إلى سمعي من الجزيرة الصغيرة أصوات تقول : « هيا هيا . أين أنتم إذن ؟ » . رددت مسرعاً : « نعم . نعم . أنا آت في الحال » .

قفزت إلى الماء وأنا مبتهج بالخلاص من ربقة (إحراج) جديد . وكان فرحي العارم بالاندفاع في لجة الماء مضافاً إليه ذلك الصفاء وتلك البرودة المنعشة كافياً لتبديد غليان دمي الفائر ، فأنا في غمرة متعة عارمة خالصة . وسرعان ما وصلت إلى حيث يجلس رفيقانا ... وتحديت الأستاذ ذا الجسم الهزيل في مسابقات عديدة انتصرت فيها عليه ثم عدنا سباحة إلى الشاطىء حيث كانت زوجة معلمي تنتظرنا وقد ارتدت ثيابها

فأعددنا بما جلبناه من مؤونة وجبة ممتعة. وعلى الرغم مما اتصفت به ممازحاتنا من حدة ومرح كنا نتجنب أنا وزوجة معلمي تبادل الكلام. كنا نتكلم ونضحك وكأن كلامنا وضحكنا لا يصدران عنا ولا ينتميان إلينا. وحينما كانت نظراتنا تلتقي سرعان ما تتحول بعضها عن بعض ونحن نعاني من جرائها شعوراً مشتركاً؛ فلم يكن قد تبدد بعد ما عانيناه من إرباك مزعج بسبب ذلك (الحادث) العارض بل كنا نشعر معاً بأنه موضوع تفكيرنا وما زال يقلقنا ويشغل بالنا.

وأمضينا فترة ما بعد الظهيرة بشوط جديد من التجديف؛ لكن حدة شغفنا بالرياضة أخذت تتناقص بسبب التعب اللطيف الذي انتابنا: لقد عملت الخمرة والحرارة وأشعة الشمس على شحن دمائنا بمزيد من الحياة والحيوية. ثم راح الأستاذ (س) وصديقته يتبادلان غزلاً ناعماً تحملناه بشيء من الارتباك... كانا يتقاربان شيئاً فشيئاً بينما كنا أنا وزوجة معلمي نلتزم فيما بيننا بعداً ما يزال يحرجنا. ولكن وعينا بعزلتنا بدأ

يتضح لأن رفيقينا المشغوفين أحبا أن يتخلفا وراءنا في ممشى الغابة كي يتبادلا القبل بمزيد من الحرية ... وهكذا كانت الذكرى المثيرة لما حدث بيننا منذ قليل تشوش حديثنا . وأخيراً سررنا نحن الأربعة بعودتنا إلى القطار : أما هما فكأنهما عروسان ليلة الزفاف ، وأما نحن فلقد تحررنا مما كان يحرجنا ويقلقنا .

ووَدعنا الأستاذ (س) وخطيبته عند بيتنا فصعدنا الدرج وحدنا ؛ وما كدت أدخل المنزل حتى عاودني إحساس جديد غامض مقلق عاصف من جراء احتمال (وجوده) . وفكرت وقد نفد صبري : « وإذا كان قد عاد ؟! » . وفي الوقت نفسه قالت لي زوجة معلمي وكأنها قرأت على شفتي تلك التنهدة الصامتة : « هيا . لنرَ هل عاد أستاذك ؟ » ... ودخلنا المنزل فإذا هو خال وليس في غرفة معلمي أحد ! وراحت حساسيتي المهتاجة ترسم على نحو لا شعوري صورة أستاذي على مقعده وهو مقهور حزين . ولكن الأوراق البيض على مكتبه ما زالت كما تركناها وكأنها تنتظر كما أنتظر . ثم عاودني

الشعور بالمرارة التي كنت أعانيها من قبل فقلت لنفسي: « لماذا هرب وخلفني وحيداً ؟ » . كان الغضب الغيور يكاد يخنقني ، وبدأت تغلي في داخلي الرغبة الدفينة الغامضة السخيفة في ارتكاب إساءة حاقدة أوجهها إلى معلمي .

لحقت بي زوجته وقالت : « ستتناول معي طعام الغداء أليس كذلك ؟ من الخير ألّا تبقى وحدك هذا اليوم » . ترى كيف عرفت أني أخاف تلك الغرفة الخاوية كما أخاف صرير درجات السلم وتلك الذكرى التي أجترها ؟ كانت تخمن دائماً كل ما في داخلي ... نعم تخمن كل فكرة ولو كانت كامنة بل كل نية خبيثة !

وتملكني الخوف ، الخوف من نفسي ، من ذلك الحقد الذي كان يعتمل في داخلي على نحو غامض . كنت أريد أن أرفض دعوتها ولكني جبنت فلم أجرؤ إلا على الاستجابة .

○

لقد كرهت الزنا دائماً لا بدافع من موقف خلقي ركيك نابع عن عفة أو إيمان بالفضيلة ... كرهت الزنا لا لأنه ضرب من السرقة يرتكب في الظلام أو لون من السطو على جسم امرأة غريبة ... وإنما كرهت الزنا لأن معظم النساء في هذه الحالة يفضحن أخفى وأعمق الأسرار لدى أزواجهن . وكل واحدة ها هنا كأنها (دليلة)[1] التي تنتزع من ذاك الذي تخونه أقدس ما لديه من خصوصية إنسانية لترمي به طعماً للغرباء ... إنها تسرق سر قوته أو ضعفه .

والخيانة في نظري ليست في أن تهب المرأة نفسها ؛ بل الخيانة في أن تعرّي المرأة خصائص زوجها السرية لتعرضها مكشوفة بين يدي غريب يبتسم ساخراً راضياً وزوجها مطمئن إليها ... تفعل كل ذلك في الأغلب كي تبرر لنفسها سلوكها .

---

(١) دليلة : المرأة الغانية التي أغوت شمشون وخدعته بأن قصت شعره ففقد قوته . (المترجمان) .

نعم لقد وجدت ــ أنا الذي كنت ضائعاً في غمرة يأس حانق أعمى ــ ملاذاً في علاقتي بزوجة معلمي ... هذه العلاقة التي بدأت أول الأمر تعاطفاً ثم أصبحت فيما بعد مفعمة بالحنان الذي كان لا بد أن يحل محل التعاطف . هذا ولم أنظر إلى تلك العلاقة على أنها ضرب من الدناءة ، فلقد تمّ ما تم بيننا ونحن مغلوبان على أمرنا ، فسرعان ما وجدنا أنفسنا وسط هذا الأتون الملتهب دون أن ندري ... ولكن الدناءة في أني تركتها تبوح لي ونحن في فراش واحد بأسرار تسيء إلى زوجها ، وأني سمحت لتلك المرأة المغضبة بأن تفضح أعمق وأخفى ما يخص علاقتهما الزوجية . ترى لماذا تساهلت معها ولم أصدها فراحت تسرّ لي بأن زوجها منذ سنوات لم يعاشرها معاشرة الأزواج فكان أن غرقت في تلك اللجة السوداء ؟ لماذا لم أزجرها وآمرها بالتزام الصمت عن أخفى الأسرار الشخصية الخاصة بالحياة الجنسية لمعلمي ؟ لكني كنت أتحرق إلى معرفة ما كان يخفيه أستاذي عني . كنت متعطشاً إلى التيقن من أنه قد أساء إلي وإليها وإلى الجميع حتى إني تلقيت منها بانفعال

هذا الاعتراف المهين الذي باحت به فيما يخص إهماله إياها ؛ فلقد رأيت شبهاً بين ذلك وبين ما كنت أشعر به حينما كان يصدني ويردني ! وواقع الأمر أننا كلينا ــ ونحن مدفوعان بإحساس مشترك غامض بالكراهية ــ كنا نمارس ما يوحي بأننا عاشقان ؛ ولكن بينما كان جسدانا يلتقيان ويلتحمان لم نكن نفكر أبداً إلا فيه ولم نكن نتحدث دائماً إلا عنه . ولطالما أزعجتني أحياناً بما كانت تقوله لي ، وكنت أخجل من أني ما زلت على علاقة بمصدر تنكيدي وتنغيصي ... ولكن جسدي تمرد على إرادتي فارتمى مستسلماً نهماً في أحضان الشهوة ؛ وهكذا كنت أقبّل وأنا أرتعش الشفة التي كانت تخون أعز رجل لدي في العالم .

○

وفي صبيحة الغد تسللت إلى غرفتي وفي فمي مرارة الاشمئزاز والخجل ... ومنذ أن توقفت حرارة جسدها عن إثارة

حواسي رحت أعي الحقيقة الرهيبة وألمس دناءة خيانتي . هذا ولم يسبق لي أبداً أن شعرت بمثل هذا الشعور ... فأنا من الآن لن أستطيع النظر في عيني معلمي ولن أقوى على مصافحته إذ سرقت منه أثمن ما عنده .

إذن ليس لي مخرج إلا الهرب . وهكذا جمعت بانفعال أمتعتي وكتبي ودفعت بالأجرة إلى صاحبة البيت . نعم يجب ألّا يلقاني في بيته ، ويجب علي أنا أن أختفي دون تبرير وعلى نحو غامض كما كان يفعل ... ولكن يدي توقفت بغتة وأنا في غمرة ما أقوم به من لملمة أمتعتي إذ سمعت صرير الدرج الخشبي تحت وطأة خطى سريعة . إنها خطاه .

وسرعان ما شحب لوني شحوب الموتى ... إذ لم يكد يدخل حتى صرخ قائلاً : « ما بك يا بني ؟ هل أنت مريض ؟ » فتراجعت وتجنبته حينما أراد أن يقترب مني ويمد إلي يد المساعدة . وسألني مذعوراً : « ما بك ؟ هل أصابك

مكروه ؟ أم إنك ما زلت غاضباً علي ؟ » . وتشبثت بالنافذة فلم أكن أقوى على النظر إليه . لقد نكأ صوته الحار العطوف جرحاً في قلبي : وكدت أن يغمى علي وشعرت بنبع محرق مفترس من الخجل ينبثق في كياني .

وكان أستاذي كذلك ذاهلاً مشوشاً . وبغتة راح يتمتم بصوت خافت متردد ليسألني : « ترى هل أخبرك أحد عني بشيء ؟ » . أومأت إليه نافياً دون أن ألتفت . ولكن يبدو أن فكرة مقلقة قد سيطرت عليه فكرر سؤاله بعناد وإلحاح : « قل لي .. اعترف .. هل أخبرك أحدهم شيئاً عني ؟ لا يهمني من يكون .. لا أسألك عن ذلك » . ومرة ثانية أجبته بالنفي . كان يقف أمامي حائراً مضطرباً ؛ وبغتة لحظ أن حقائبي معدة وكتبي جاهزة للتغليف وأن وصوله قد قطع علي استعدادي للسفر . تقدم مني منفعلاً وقال : « لعلك تريد السفر يا عزيزي . أنا أرى ذلك .. أخبرني الحقيقة » . حينئذ تماسكت وقلت له : « لا بد لي من السفر .. سامحني .. ولكني

لا أستطيع أن أشرح لك .. سأكتب إليك » . كان يتعذر علي أن أزيد شيئاً فحنجرتي مختنقة وقلبي يخفق مع كل كلمة .

ولبث جامداً ثم غلب عليه الإعياء وقال : « نعم من الخير أن تسافر . هذا مؤكد . من الخير لك ولنا أن تسافر .. ولكن قبل أن تغادرنا أريد أن أتحدث إليك . احضر إلينا في الساعة السابعة . سيودع أحدنا الآخر وداع الرجال . لا يجوز لنا أن نهرب من أنفسنا . ولا حاجة بك إلى الكتابة فذلك أمر سخيف وغير جدير بنا .. ثم إن ما سأقوله لك لا يُكتب .. ستحضر في الموعد المحدد . أليس كذلك ؟ » .

واكتفيت بأن أشرت إليه إشارة القبول . كنت لا أجرؤ على تحويل نظري عن النافذة ؛ ولكني لم أكن أرى شيئاً من صفاء ذلك الصباح فلقد كانت غلالة سوداء كثيفة تحجب عني رؤية العالم .

○

وفي الساعة السابعة دخلت ــ آخر مرة ــ المكتب الحبيب . كانت ظلمة مبكرة تهيمن عليه ؛ وفي عمق المكتب كانت ترى بصعوبة رؤوس التماثيل الرخامية ؛ أما الكتب السوداء فترقد في الخزائن خلف الزجاج اللامع ... إيه أيها الملاذ المقدس لذكرياتي ! فيك صارت (الكلمة) لدي (سحراً) ، وفيك وحدك تذوقت نشوة الفكر وفتنته . أنا أراك الآن في ساعة الوداع هذه كما كنتَ دائماً ... سأرى وأرى دائماً بين جدرانك هذا الرجل المجيد وهو يغادر مقعده متباطئاً ليقف أمامي بظله . إن له جبهة مدورة فريدة بلمعانها وكأنها مصباح رخامي ، ومن فوقها يموج شعر هذا العجوز كغمامة متماوجة . وها هو ذا الآن ينهض متثاقلاً ويمد إلي يداً تبحث عن يدي ... وها هي ذي عيناه تتجهان نحوي برصانة ورزانة . إنه يمسك بذراعي ويقودني إلى أحد المقاعد ويقول :

« اجلس يا عزيزي ولنتحدث بصراحة ووضوح . نحن رجلان وعلينا أن نكون صادقين . أنا لا أحاول الضغط عليك ،

ولكن أليس من الخير لنا أن نمضي هذه الساعة الأخيرة ونحن في غاية المصارحة والوضوح التامين ؟ قل لي إذن، لماذا تريد أن تغادرنا ؟ أأنت غاضب علي من جراء إساءة تافهة ؟ ». أومأت إليه نافياً... وكنت لا أحتمل أن يلقي التبعة على كاهله وأنا الذي قد خدعته وخنته. وقال لي: « ترى هل كانت إساءاتي إليك عامدة أم غير عامدة ؟ أنا أدري أني كنت غريب الأطوار بعض الأحيان فأثرتك وعذبتك على الرغم مني. لم أكن أشكرك على ما أسديت إلي من خدمات. أنا أعرف ذلك. نعم كنت أعي ذلك دائماً حتى في اللحظات التي كنت أسيء فيها إليك... هل هذا هو سبب غضبك ؟ أخبرني يا عزيزي. أود لو نفترق على الصدق والمودة ».

وأطرقت برأسي إذ لم أقوَ على الكلام. وكان صوته حتى الآن مطمئناً ولكنه راح يضطرب قليلاً... وأردف يقول: « أم إن أحدهم قد نقل إليك شيئاً عني، شيئاً تراه مرذولاً مقززاً، شيئاً يجعلني مدعاة للاحتقار في نظرك ؟ ». وسرعان

ما انفجرت قائلاً وكأني أنتحب : « كلا .. كلا . كلا » . وقلت لنفسي : « أنا الذي أحتقره هو ؟! » . وصارت نبرته ملحاحة لجوجة وهو يسأل : « ما الحكاية إذن ؟ وما سبب كل ذلك ؟ هل تعبت من العمل أم إن سبباً آخر يدعوك إلى السفر ... هل هناك امرأة ؟ » . ولبثت صامتاً . ولا شك في أنه قد رأى في صمتي ما يشي بالاعتراف فانحنى علي مقترباً وهمس دون انفعال أو غضب : « هل هناك امرأة ؟... أهي زوجتي ؟ » .

اعتصمت بصمتي الدائم فأدرك كل شيء . واجتاح الاضطراب أرجاء جسدي وتوقعت منه في هذه اللحظة أن ينفجر وينقض علي ليوسعني ضرباً مبرحاً . وثار لدي ما يشبه الرغبة في أن يسوطني ، أنا اللص الخائن ، وأن يركلني كما يُركل كلب أجرب ليطردني من بيته الذي دنسته . ولكن الغريب العجيب أنه لبث صامتاً هادئاً ... ثم تمتم متأملاً وكأنه يخاطب نفسه : « الحق أنه كان علي أن أتوقع ذلك ! » قال هذا بطريقة

خيل إلي معها أنه قد سُرّي عنه . ثم ذرع الغرفة ذهاباً وإياباً ووقف أمامي وقال لي بلهجة لا تخلو من تردد : « هكذا إذن ... أهذا ما تحمله محمل الجد ؟ ألم تخبرك بأنها حرة تفعل ما يحلو لها وتعاشر من يروق لها وأنه ليس لي عليها أدنى حق ؟ أدنى حق في أن أمنعها عن أي شيء ... أنا الذي لا أرغب أصلاً في منعها . ولماذا تمسك نفسها عن حبك ؟ وفي سبيل مَنْ ؟ أنت شاب فتيّ جميل رائق تعيش معنا فكيف لا تحبك وأنت ما أنت عليه من صبا وجمال .. نعم كيف لا تحبك ؟ أنا ... » .

وبغتة بدأ صوته يضطرب ثم مال علي حتى شعرت بأنفاسه على وجهي . وعاودني الشعور بالدفء الغامر لنظراته .. عاودني الإحساس بذلك البريق الغريب وكأننا عدنا إلى تلك اللحظات الماضية النادرة التي كنا قد عشناها معاً . وراح يدنو مني أكثر فأكثر ؛ ثم تمتم من بين شفتيه بصوت لا يكاد يسمع : « وأنا ... أنا أحبك كذلك » .

ترى هل كانت بغتتي شديدة ؟ وهل جعلتني كلماته أنقز على غير إرادة مني من جراء الرعب الذي أصابني ؟ لست أدري؛ ولكن (ردة فعلي) الجسدية المفاجئة المتراجعة جعلته يبتعد وهو يترنح وكأن شخصاً قد دفع به. ثم أظلم وجهه وسألني بصوت خفيض: «أنت تزدريني الآن. أليس كذلك ؟ هل تمجنني وتكرهني ؟». ترى لماذا لم أجد ما أقوله ؟ ولماذا اكتفيت بأن ألبث صامتاً مرتبكاً مذهولاً غير آبه بدلاً من أن أرمي بنفسي صوب هذا الرجل المفعم حباً لأبدد عنه ما يعاني من قلق موهوم ؟ ولكن كل الذكريات راحت تتوالى على رأسي وكأنها تهاجمني فأدركت الأمور بغتة بوضوح مخيف وكأن النقاط قد وضعت على حروف كل تلك اللغة المبهمة الغامضة التي كانت تسود علاقتنا: لقد أدركت معنى التناقض بين حنانه الذي كان يصبه علي وبين صدوده العنيف المفاجيء؛ وفهمت ـ وأنا مضطرب ـ مغزى تلك المحاولة الليلية وما تلاها من إلحاحه العنيد على الهرب من شغفي به، هذا الشغف الذي كان يكبر ويكبر. إن ما كنت

أستشعره لديه من حب رقيق متردد عارم أحياناً، مكبوت أحياناً بقوة قاهرة، قد عشته واستمتعت فيه بكل بادرة عابرة تتوجه إليّ... وحينما سمعت كلمة (الحب) تصدر عن فم ذلك الملتحي بلهجة حنان شهواني، سرعان ما تملكتني رعشة لطيفة مرعبة معاً. وعلى الرغم من خضوعي له وتعاطفي معه ـــ أنا الشاب المضطرب المرتعد المذهول من المفاجأة ـــ لم أجد كلمة أقولها رداً على ذلك الهوى الذي نشره أمامي على غير توقع. وتمتم وهو يجلس منهاراً أمام صمتي: «إذن أنت ترى في بوحي أمراً رهيباً! حتى أنت لا تغفر لي ذلك؟ أنت الذي كتمت حبي له حتى كدت أختنق به، أنت الذي أخفيت سري عنه دون غيره من الناس؟... إذن من الخير لك أن تعرف الآن كل شيء فلقد تخففت من هذا العبء إذ طفح الكيل... نعم طفح بحيث لم أعد أطيق احتمالاً. من الخير أن أضع حداً لكل هذا فأنجو من شرك هذا الصمت والمداراة».

قال ذلك بلهجة مفعمة بالحزن والحنان والاضطراب!

ولقد نفذت نبرته المرتعشة إلى أعماق قلبي فخجلت من أن ألبث صامتاً مع برودتي وجمودي وجفائي أمام هذا الرجل الذي تعلمت منه ما لم أتعلمه من أي إنسان؛ وها هو ذا الآن يقف أمامي متذللاً على نحو لا يصدق. كنت أتحرق إلى أن أوجه إليه كلمة عزاء، ولكن شفتي المرتعشة لم تكن تطاوعني.. وهكذا تصاغرت وتقوقعت في مقعدي حتى إنه اضطر إلى تشجيعي فقال لي: «لا تكن هكذا... ولا تخلد إلى صمتك الرهيب. تجلدْ وتماسكْ. أحقٌّ أنك ترى في هذا البوح ما يرعب؟ وهل أسبب لك خجلاً شديداً؟ لقد فات ما فات وقلت لك ما قلت... فلنفترق إذن بشجاعة تليق بالرجال والأصدقاء. وهذا أضعف الإيمان». ولكني لم أكن قد ملكت زمام نفسي بعد. حينذاك لمس ذراعي قائلاً: «تعال يا عزيزي واجلس بالقرب مني فأنا الآن على أحسن حال منذ أن أطلعتك على الحقيقة، ومنذ أن ساد الوضوح ما بيننا... كنت أخشى أول الأمر ألّا تقدّر حقيقة إعزازي لك. كنت آمل أن تلمس ذلك وحدك؛ وذلك كي توفر علي عناء هذا

البوح... والآن لقد قضي الأمر فأنا حرّ خليّ البال وفي استطاعتي أن أحدثك بما لم أحدث به غيرك من الناس. لقد كنت أعز مخلوق لدي، ولقد أحببتك طوال هذه السنين حباً لم أحبه أحداً غيرك... نعم أنت وحدك دون غيرك مَنْ أيقظت أعمق ما في كياني من نبل وسمو... وهكذا ـــ ونحن في موقف الوداع هذا ـــ لا بد لي من أن أنبئك عن نفسي بما لم أنبىء به أحداً من قبل. لقد لمست حقاً فيما مضى على نحو واضح رغبتك في استجوابي... إذن ستكون أنت الوحيد الذي سيعرف حكاية حياتي كاملة. أتريد أن أرويها لك ؟ ».

لقد قرأ في نظراتي المضطربة المنفعلة رغبتي فيما عرض علي فقال لي: « اقترب مني إذن. اقترب. فأنا لا أستطيع أن أبوح بهذه الأمور بصوت مسموع ». انحنيت خاشعاً؛ نعم فتلك هي الكلمة المعبرة عن واقع حالي. وسرعان ما نهض ثانية حينما جلست أمامه منتظراً مصغياً. وراح يقول: « كلا.

كلا لا تنظر إلي ؛ وإلّا فلن أقوى على الكلام » ... ومد يده فأطفأ المصباح .

خيم الظلام علينا وشعرت بأنـه قريب جداً منـي ؛ عرفت ذلك من تنفسه الثقيل الذي يشبه الحشرجة والذي ينطلق ليجد له مخرجاً . وبغتة انطلق صوته وراح يروي لي قصة حياته .

○

منذ ذلك المساء إذ فتح لي هذا الرجل الذي أجلّه صدره كما تنفتح قوقعة صلبة ليبوح لي بأسرار حياته ... منذ ذلك المساء الذي مر عليه أربعون عاماً ، بدا لي تافهاً بلا قيمة كلُّ ما يرويه لنا كتّابنا وشعراؤنا من (روائع) ، وكلُّ ما تخفيه (الكواليس) في المسرح على أنه أخطر من أن يعرض على الخشبة !

ترى... أبسببٍ من الإهمال والجبن وقصور الرؤية يكتفي كتّابنا وشعراؤنا بتصوير الجوانب المضيئة (الرفيعة) من الحياة حيث تمارس الحواس أدوارها على نحو (مشروع) مكشوف... بينما هناك في القاع تصطخب وتعربد وتموج في كهوف النفس البشرية ودهاليزها وزواياها المعتمة وحوشُ الأهواء الخطرة على نحو غريب عجيب مختلط. ترى هل تخيف أدباءنا وشعراءنا الأنفاسُ الملتهبة المضطرمة للغرائز الشيطانية؟ وهل يرعبهم بخار الدم الذي يغلي ويحترق؟ وهل يخافون أن تتسخ أيديهم المرهفة بقروح البشر وجراحهم؟ أم إن عيونهم التي تعودت الوضوح المألوف عاجزة عن أن تصل بهم إلى المناطق الزلقة الخطرة المقززة في عالم الفساد والانحلال؟ على أن الإنسان الواعي المجرب لا يشعر بفرح حقيقي إلا وهو يسبر خفايا النفس وزواياها؛ وهو وحده الذي يذوق طعم تلك الرعشة العنيفة الناجمة عن مواقف الخطر؛ إنه لا يرى ألماً مقدساً غير الألم الذي لا نجرؤ على البوح به بدافع من الحشمة والحياء.

إذن ها أنذا أمام رجل يكشف نفسه في عريها الكامل، رجل يمزق الأستار عن أعمق خفاياه وهو مستعد لأن يفتح لي قلبه الخافق المقروح. نعم كان في بوحه بما يكنّ منذ سنوات وسنوات شهوة عارمة لتعذيب النفس على نحو طوعي، شأنه شأن من يستعذب جَلد نفسه. لقد عانى من الخجل ما عانى فعاش حياته الطويلة منطوياً منزوياً، فهو وحده القادر على أن ينتشي تلك النشوة العارمة بمثل ذلك البوح العاري المضطرم. راحَ هذا الرجل ينتزع حياته من قلبه قطعة فقطعة، وها أنذا الآن ـــ ولم أزل غراً ـــ ألمح أول مرة في حياتي بعين زائغة الأغوار السحيقة للمشاعر الإنسانية.

كان صوته بادىء بدء يموج أثيرياً في الفضاء تحت وطأة الانفعال تموُّج دخان حائر متردد وكأنه يشير به إشارة غامضة إلى بعض الأحداث. ومع ذلك كنت أشعر من أسلوبه في السيطرة الشاقة على هواه بأن هذا الهوى يوشك أن ينطلق جامحاً متفجراً شأنه شأن الجملة الموسيقية التي يتباطأ إيقاعها

تمهد لانفجار اللحن التالي عارماً عنيفاً ... ثم بدأت الصور تتوهج محلقة فوق ذلك الهوى العاصف في أعماقه لتصبح شيئاً فشيئاً أكثر وضوحاً ...

ها هو ذلك الصبي الخجول الانطوائي الذي لا يجرؤ على أن يوجه كلمة إلى رفاقه؛ ولكن رغبة جسدية غامضة قاهرة تشده على وجه الخصوص إلى أجمل فتيان المدرسة. وحينما يحاول الفتى مداعبة بعض الفتيان يكون نصيبه الصد الغاضب من أحدهم والسخرية المرّة بكلمة نابية سوقية من الآخر ... ولكن المصيبة الداهية أن هذين الفتيين يشهّران به أمام الرفاق ليفضحا ما لديه من ميول شاذة. وسرعان ما تنصب على الفتى ألوان شتى من السخرية والإهانة الجماعية لتعزل الفتى الضائع عزل المجذوم من صحبة رفاقه المرحين؛ وهكذا صار الذهاب إلى المدرسة لديه عذاباً يومياً أليماً، وصارت لياليه مسهدة بفعل كرهه لنفسه فلقد حُكم عليه حكماً مبكراً بالعار ... وراح هذا الفتى المجفوّ من زملائه يشعر

بأن ميوله الشاذة التي لم تتحقق إلا عبر الأحلام ليست إلا حماقة ورذيلة مشينة .

وراح صوت محدثي يتذبذب حائراً متردداً ، وبدا لي في لحظة من اللحظات أن صوته يكاد ينطفيء في الظلام ؛ ولكنه تنهد واسترجع قواه وبدأت صور جديدة تسطع وهي تلتهب مترادفة كأنها ظلال وأشباح ... ثم صار الفتى طالباً في برلين فوجدتْ ميوله المكبوحة زمناً طويلاً متنفساً لها في أقبية المدينة . ولكن تلك (اللقاءات) التي تتم بعد التغامز بالعيون والتي كان مسرحها زوايا الشوارع المعتمة وظلام المحطات والجسور ، كان يلوثها التقزز ويسممها القلق ! وما كان أسخف تلك (المتع) المصحوبة دائماً بالمخاوف والأخطار الرهيبة والتي تنتهي غالباً على نحو بائس بضروب من الابتزاز والاستغلال . وهكذا كان كل (لقاء) يخلف وراءه على مدى أسابيع إحساساً بالهلع الشديد لا ينمحي شأنه شأن ما يخلفه (البزّاق) خلفه من أثر لزج ! ويا لها من طريق تلك التي سلكها صاحبنا ... طريق

جهنمية بين الظلام والضياء: فبينما كان بريق الفكر في أثناء النهار المضيء المنتج (يطهّر) رجل العلم، كان المساء يحل ليغرق هذا الرجل الغاوي في حمأة الأحياء النائية حيث الأشخاص المشبوهون الذين سرعان ما يلوذون بالفرار لدى رؤيتهم قبعة الشرطي، وحيث المواخير ذات الأنفاس الكريهة التي لا تفتح أبوابها الحذرة إلا في وجه ابتسامات متفق عليها. كان لا بد له من إرادة مرنة مرونة الفولاذ كي ينجح في إخفاء هذه الازدواجية اليومية في حياته ولكي يخبيء بمزيد من الحذر عن أعين الغرباء هذا السر المرعب الشبيه برأس (ميدوزا)[1]؛ فهو ملزم بأن يحتفظ طوال نهاره على نحو لائق بمظهره الجاد الجدير بأستاذ جامعي ليجوب بعد ذلك متنكراً في الليل أرجاء العالم السفلي بمغامراته المخجلة الجارية في عتمة الأنوار الخافتة. إن هذا الرجل المسكين المعذب يجهد دائماً وأبداً أن يرجع بهذا

(١) ميدوزا في الأساطير اليونانية هي إحدى الغيلان الرهيبة الدميمة، شعرها من الأفاعي؛ وهي تحيل كل من تقع عليه نظرتها إلى حجر.
(المترجمان)

الهوى المنحرف إلى جادة الصواب فيحاول أن يكبح جماح نفسه والسيطرة عليها ؛ ولكن (غريزته) تأبى إلا أن تجره دائماً نحو الهلاك الأسود . وراح يناضل على مدى خمسة عشر عاماً نضالاً حطم أعصابه سطوةَ هذه القوة الخفية المغناطيسية لهذا الميل الشبيه بداء عضال ؛ ولكن هذا النضال سرعان ما كان يضيع سدى في غمرة رعشة استمتاع دون متعة مصحوب بخجل مدمر ؛ ومع الزمن ولدت لديه تلك النظرة المظلمة الخجولة المنكفئة التي سببت له ذلك الخوف من هواه ذاته .

وهكذا بعد أن أنهى العقد الثالث من حياته كانت محاولة جادة من قبله ليرجع المياه إلى مجراها الطبيعي ؛ فلقد تعرف عند أقربائه بمن صارت زوجته فيما بعد . كانت فتاة شابة أحبته بإخلاص مدفوعة على نحو غامض بما في شخصيته من أسر . ولقد نجحت هذه الفتاة الشابة بعض الوقت بجسدها ومظهرها الفتيين وأنوثتها المتدفقة في صرف هواه القديم إلى اتجاه جديد ، فاستطاعت هذه العلاقة السريعة أن تنتصر على نفوره

من (الأنثى)... إذن تزوج هذه الفتاة بعد أن باح لها بكل شيء فانتصر - أول مرة - على شذوذه وانحرافه آملاً أن يسيطر على نفسه بفضل هذا الحب الطبيعي، تحدوه الرغبة الشديدة في الارتباط بتلك التي وفرت له دعماً قوياً إبان نضاله تلك الغريزة المدمرة. إنه يظن الآن أن الطريق المؤدية به إلى الهلاك قد سدّت فراح ينعم على مدى أسابيع معدودة بالسكينة والصفاء. ولكن سرعان ما تبين أن هذا (العلاج) الجديد لا غناء فيه ولا جدوى، وأن تلك الرغبة الجنونية استرجعت سلطانها عليه عنيدة جبارة... وصارت زوجته التي خاب أملها - وهو الذي خيب أملها - لا تصلح إلا لأن تكون (قناعاً) يخفي عن عيون المجتمع انتكاسه وعودته إلى شذوذه.

وها هو ذا يعود ثانية إلى طريق الهلاك يمارس المشي على الصراط الرهيب المؤدي إلى مهاوي الخطر. ومما زاد الطين بلة أن (وظيفة) جديدة قد أسندت إليه، فصار (ميله) الشاذ

من جرائها لعنة عليه أيما لعنة ؛ فهو مضطر إلى مخالطة الفتيان على نحو دائم بحكم عمله محاضراً في الكلية التي سيكون عما قريب أستاذاً فيها . وهكذا كان الإغراء على مرأى ومسمع منه ؛ فثمة جيل متفتح من الشباب اليافع ذي الجمال الإغريقي ... فيا لها من لعنة جدية ! ويا له من خطر جديد ! لقد شغف به الجميع دون أن يلمحوا الجانب الشهواني المستتر وراء قناع (الأستاذ) . كانوا يسعدون حينما يضع يده عليهم بحركة عفوية ترتعش في سرها ، وكانوا يسرفون في اندفاعهم نحو ذلك الإنسان الذي كان عليه دائماً أن يمسك نفسه عنهم . وما أشبه عذابه بعذاب (تانتال)[1] فهو مضطر إلى التظاهر بالقسوة تجاه مودة الطلاب وحبهم ، وهو يخوض صراعاً دائماً مع ضعفه الذاتي صراعاً لا نهاية له ! وهو سرعان ما يركن إلى الفرار حينما يحس بخطر الوقوع في أحضان الغواية .

---

(١) تانتال في الأساطير اليونانية ملك ليديا زارته الآلهة فقدم لهم لحم ابنه وليمة فحكم عليه زيوس كبير الآلهة بالجوع والعطش .
(المترجمان)

إذن ... الآن أفهم سر تلك السفرات، إذ كان يقلقني. ويحيرني بمغادرته ورجوعه المفاجئين: نعم الآن أفهم سر ذلك الهرب من نفسه، ذلك الهرب إلى أحضان الطرق الملتوية والمرابع المرذولة.

وهكذا كان يرتاد إحدى المدن حيث يجد في بعض الأماكن النائية أصنافاً شتى من السّفْلة التي تدنس من يعاشرها ... إنهم فتية اتخذوا بيع أجسادهم مهنة ... وهم على النقيض الكامل من شباب الجامعة الذين نذروا له أرواحهم بما يشبه التقديس. ولكن لعل التقزز من البشاعة والإحساس الحاد السام بخيبة الأمل كانت لديه ضرورة لكي يضبط غريزته فلا تنفلت حينما يعود إلى حياته المطمئنة بين طلابه ... نعم كم من لقاءات وكم من صور تخيلتها فيما عرض أمامي وهو يعترف ... ولكنها كلها كائنات من لحم ودم تنزّ قيحاً وصديداً!

إن هذا الرجل ذا الاهتمامات الفكرية الرفيعة الذي كان

(الجمال) لديه حاجة فطرية ، إن هذا الخبير بأهواء النفوس الذي لم يكن يعرف إلا النقاء والصفاء ... كان عليه أن يعاني أفظع ألوان الإهانات على هذه الأرض في تلك المواخير القذرة ذات الأنوار الشاحبة التي لا تفتح أبوابها إلا لمريديها المخلصين : نعم لقد عرف وعاين الرغبات الوقحة لأولئك الصبية المخنثين المتبرجين الذين يميسون في المتنزهات ، كما عانى وعاين ذلك الغنج والتدلل لدى صبية الحلاقين المفرطين في التعطر ، كما عرف تلك الضحكات المثيرة المتكلفة لدى المراهقين المتنكرين بثياب النساء ، كما عرف جشع (الممثلين) المهرجين التافهين إلى المال ... والرقة المزيفة لدى البحارة المتظرفين ... كان يعرف كل أشكال الانحراف والضلال والشذوذ العجيب التي يجد فيها (الجنس) المنحرف ضالته ويحقق عبرها ذاته في تلك المرابع المشبوهة من المدن . لقد مارس على هذه الدروب الزلقة كل ألوان الإذلال وضروب المخجلات وصنوف العنف : نعم تعرض مرات عديدة للسلب والسرقة فهو أضعف وأرفع من أن يتصدى بالشجار للسِّفْلة ... ولقد عاد مرة إلى منزله وقد

سلبت ساعة يده ومعطفه ؛ زد على ذلك أن غلام الفندق الأعور المخمور الذي سلبه في الضاحية راح يسخر منه . وبدأ بعض (النصّابين) المبتزين يقتفون أثره فلحق به أحدهم متابعاً خطواته على مدى أشهر حتى عاد يوماً إلى الكلية فجلس بصفاقة ووقاحة في الصف الأول بين الحضور وراح يبتسم ابتسامة الأوغاد العاهرين ناظراً إلى الأستاذ الذي تعرفه المدينة كلها ... وهكذا لم يصل الأستاذ إلى نهاية محاضرته إلا بشق النفس بفعل الاضطراب الذي عاناه من جراء (الغمزات) الماجنة الخليعة التي كان يوجهها إليه ذلك الفاجر .

أما حينما روى لي الواقعة التالية فلقد كاد قلبي يجمد :

أوقف ذات مرة في منتصف الليل من قبل شرطة برلين مع عصبة كاملة في حفلة راقصة مشبوهة ... وراح شرطي ذو وجه أحمر ممتلىء يبتسم ساخراً إذ أتيح له أن يمارس سلطانه على أحد المثقفين ، ثم دوّن على بطاقته اسم الأستاذ المسكين المرتعد ومهنته ، وأنبأه بأنه سيصفح عنه هذه المرة وسيطلق سراحه

دون عقوبة ... ولكن اسمه سيبقى مدوناً في القائمة السوداء !

ومثلما تعلق رائحة الخمارات الرخيصة بثياب مَنْ تعوَّد ارتيادها علقت الشبهات بصاحبنا فصار موضوعاً للتهامس من قبل أهل مدينته دون أن يدري بمصدر هذه الشائعات، وصارت حاله مع زملائه في الكلية مثلما كانت مع رفاقه في المدرسة، إذ بدأت التحيات والمحادثات المتبادلة تزداد برودة واستعلاء حتى انتهى الأمر بعد افتضاحه وانكشاف أمره إلى معاملته ــ وهو الانطوائي بطبعه ــ معاملة الغريب وعزله عن المجتمع قاطبة؛ بل إنه كان يشعر وهو في عقر داره المغلقة عن أعين الناس أنه عرضة للتجسس والتعرية.

إن قلبه المعذب المهموم لم يذق طعم الصداقة الخالصة النبيلة ولا حنان العلاقة الرجولية المستقلة عن دائرة العلاقة الجسدية. كان عليه دائماً أن يوزع مشاعره شطرين: شطراً يحتفظ به للعلاقات الراقية المستوحاة من الشباب المثقفين في الكلية، وشطراً يغوص به في الأماكن المرذولة حيث يلتقي

رفاق السوء الذين لا يذكرهم في صبيحة الغد إلا مرتعشاً منقبضاً. إن هذا الرجل الذي بدأ يهرم قبل الأوان لم يعرف علاقة صافية بشاب ذي نفس كريمة يصفيه الوداد... ولقد أجهزت عليه خيبات الأمل ومزقت أعصابه تلك المطاردات الضالة في أشواك الأدغال فصار يرى ـ وهو خاضع مستسلم ـ أن وجوده لم يعد إلا أطلالاً دارسة.

ولكن... ها هو ذا أحد الشباب يدخل حياته دخول العاصفة واهباً نفسه بغبطة وسخاء إلى أستاذه الكهل متوجهاً إليه بكل نشاطه، ذلك الأستاذ الذي فجأته هذه (المعجزة) التي لم يكن يحلم بها قط فشعر بأنه حائر مغلوب وبأنه ليس أهلاً لهذه الهبة الرائعة التي جاءته بريئة نقية. ولكن هذا الشاب يأتي إليه (رسولاً) من عالم الشباب؛ فصورته جميلة وأحاسيسه جياشة، وهو يتوجه إليه توجهاً روحياً لاهباً ليرتبط به بمشاعر المودة الرقيقة متعطشاً إلى صداقته غير مدرك لما يحيط به من خطر.

وأخذ هذا الشاب الجريء الجسور الذي يحمل في نفسه الصافية البريئة شعلة (الحب) يتعهد جراح أستاذه الخطرة جاهلاً افتتان الأستاذ به غير عارف بأن قدومه إليه سيعمل على شفائه: وها هو ذا الشاب الذي ظل صاحبنا ينتظره طوال عمره يأتي متأخراً ليدخل بيت هذا العجوز في الساعة الأخيرة من الليل وقد خيمت ظلال المساء على حياته... وحينما كان محدثي يرسم هذه الصورة كان صوته يبدو كذلك وكأنه خارج من قلب الظلام. ولكن كأن ضوءاً راح ينيره؛ فلقد وهبته الرقة العميقة أجنحة من عالم النغم بينما كان لسانه الفصيح يتحدث عن ذلك الفتى على أنه (الحبيب) الذي جاء متأخراً.

كنت أرتعد من الانفعال والشعور بالمودة والسعادة، ولكن سرعان ما انقبض" قلبي وراح يضرب بعنف. إن هذا الفتى الناضر الذي يشير إليه معلمي ليس إلا أنا... فكرت في هذا وقد احمرت وجنتاي. نعم أنا وليس غيري: كنت أرى

(صورتي) ترتسم في قلب مرآة لاهبة تشع حباً لا مثيل له يكفي لإشعال النار في نفسي. إذن أنا وليس غيري... وبدأت من الآن أعي نفسي على وجه أفضل. أعي ضروب سلوكي وتصرفاتي الملهوفة الانفعالية، أعي رغبة أستاذي المحمومة في أن أقترب منه، ووجده المشغوف الذي لم يكن يقنع بعلاقة فكرية ثقافية محضة فيما بيننا. بدأت أعي نفسي أنا الشاب البريء المتهور الذي كان يجهل مدى قدرته... ولكنه فجّر في الكيان (العقيم) الناضب لدى أستاذه نبعاً غزيراً من الإبداع وأشعل في نفسه نار (الشهوة) التي كانت خامدة مستهلكة. هاأنذا أرى الآن بمزيد من الدهشة ما كنت أعنيه له أنا الفتى المتردد الذي كان الأستاذ يحب فيه حماسته الملهوفة فيراها أقدس هدية تهدى إليه في سنّه تلك. كنت أتذكر كذلك ـــ وأنا أرتعد ـــ ألوان الصراع التي كانت تعانيها إرادته بسبب مني؛ فهو لم يكن يريد ـــ وهو الذي يحبني ذلك الحب الصافي ـــ أن يتلقى مني السخرية أو الإعراض والصد؛ لم يكن يريد لي أن أشعر بالإهانة من جراء اشتهائه لجسدي... ولم يكن يريد أن

يضحي بهذه النعمة المتأخرة التي وهبها إياه قدر ظالم على مذبح حواسه وشهواته. ولهذا كان يقابل جهودي وخدماتي بمقاومة عنيفة ليصب في الوقت نفسه على مشاعري الفياضة سيلاً مباغتاً من السخرية القاسية؛ ولهذا كان دفق مودته يتحول بغتة إلى قسوة متكلَّفة، ولهذا كان يكبح جماح ذلك الحنان الذي كانت يده تغمرني به حينما تلتفّ على كتفي... نعم بسببي أنا كان يُكره نفسه على القيام بتلك الحركات الجافية الرامية إلى تبريد فورة حماستي وحماية نفسه من نفسه، هذه الحركات التي كانت لي مبعث ضيق وقلق على مدى أسابيع طويلة.

وهكذا بدأت أفهم بوضوح مخيف ماذا كانت تعني وقائع تلك الليلة الرهيبة حينما تسلل في الظلام مدفوعاً بجموح حواسه فصعد درجات السلم ليعود أدراجه بعد أن وجه إلي تلك الكلمة القاسية حرصاً منه على الإبقاء على صداقتنا. أما أنا فارتعدت وانتابني الانفعال والاضطراب وكأني محموم

فأدركت مدى تألمه بسببي ولمست أية بطولة فائقة بذلها لقهر أهوائه ...

يا لهذا الصوت ، صوته المنبعث من قلب ظلام الليل ! نعم ما كان أشد نفاذه إلى أعمق خلايا قلبي ! كانت ترن في ذلك الصوت نبرة لم أسمع لها شبيهاً من قبل ولم تصافح أذني نبرة مثلها منذ تلك الساعة ... نبرة تصدر من الأعماق بحيث لا يرقى إلى تقديرها إلا النخبة من البشر .

وفي ظني أنه ما من أحد غيره يستطيع أن يفعل فعله ، حينما تحدث إلي على هذا النحو فباح بكل ما يريد دفعة واحدة ليخلد بعد ذلك إلى الصمت الأبدي ... نعم ما أشبه حال أستاذي آنذاك بما ورد في حكاية طائر البجع[1] الذي لم يُتَح

---

(١) يشير الكاتب إلى قصيدة (موت البجع) للشاعر الفرنسي ألفريد دي فيني . (المترجمان) .

له أن يرفع صوته بالنشيد المحشرج إلا وهو يجود بأنفاسه الأخيرة .

كنت أتلقى بل أحتضن صوته الذي كان مؤثراً نفاذاً بدفئه وحرارة انفعاله ... كنت أحتضنه وأنا في غاية الأسى والألم احتضان المرأة لرجل نفذ إلى حياتها .

○

وسكت صوته على حين غرة ... فليس بيننا إلا الظلام . كنت أعلم أنه كان قريباً مني وأنه يكفي أن أمد يدي كي ألامسه . كنت أشعر برغبة حارة في أن أكون مسعداً له في محنته ... ولكنه قام بحركة من يده فاشتعل الضوء . ورأيته ينهض من مقعده محطماً عاجزاً معذباً ليقترب مني ويقول : « وداعاً يا عزيزي ... لم يَبق لدينا ما نقوله الآن . لقد أحسنت صنعاً بحضورك . من الخير لنا كلينا أن ترحل . وداعاً ... دعني أقبّلك في هذه اللحظة الرائعة » .

انحنيت نحوه وكأني محمول على جناح قوة سحرية.
وشعّ في عينيه بريق غريب، هذا البريق الذي كانت تشوشه فيما مضى سحابة من القلق... نعم لمعت في عينيه شعلة ملتهبة. ثم شدني إليه وراحت شفتاه تعصران شفتيّ بحركة عصبية وهو يضمني إلى جسده مرتعداً مرتعشاً... كانت قبلة لم أعهد مثلها لدى أية امرأة، قبلة (وحشية) يائسة كأنها نذير الموت. وامتد ارتعاش جسده إلى جسدي فضربتني رعدة عنيفة وأنا نهب لإحساس مزدوج غريب رهيب: لقد انقادت نفسي إليه... ولكني كنت أعاني رعباً يهز أعماقي من جراء ذلك النفور الذي عاناه جسدي من معانقته جسد رجل! أما هذه الفوضى الرهيبة في أحاسيسي فجعلتني أحس بتلك اللحظة وكأنها الدهر فما عدت أملك نفسي وفقدت إحساسي بالزمن.

ثم خلّى سبيلي فكانت هزة عنيفة انفصل فيها الجسدان. التفت بمشقة وارتمى على مقعده مديراً لي ظهره...

ولبث جسده الساكن مستقيماً منتصباً في الفـراغ دقائـق معدودة... وشيئاً فشيئاً ثقل رأسه فمال بهدوء مستسلماً للتعب بل الإعياء، ثم راح جسمه يترنح وقد فقد توازنه فانحط جبينه بغتة كحجر ثقيل على طاولة المكتب فسمع لذلك صوت خامد جاف.

انتابني عطف وإشفاق لا حد له فاقتربت منه بحركة عفوية... ولكن ظهره الواهن انتصب منتفضاً على حين غرة واتجه نحوي وهو يضع كفيه المتشنجتين على وجهه وصرخ من بين يديه بصوت مخنوق أجش وكأنه ينتحب بلهجة مهددة:

«إليك عني... إليك عني... كلا... لا تدن مني. أستحلفك بالله... أستحلفك بحبنا... انصرف الآن... انصرف!».

فهمت كل شيء وتراجعت وأنا أرتعد... ومضيت هارباً من ذلك المكان الحبيب.

لم يُقدر لي أن أراه بعد ذلك، ولم أتلق منه رسالة، ولم أسمع عنه خبراً. أما كتابه فلم يرَ النور... وأما اسمه فقد طواه النسيان؛ وما منْ إنسان غيري يذكره... ولكني ما زلت حتى الآن ـــ كما كنت في شبابي ـــ أشعر بأني مدين لهذا الرجل أي دين... مدين له أكثر مما أدين لأمي وأبي قبل أن أعرفه، ولزوجي وأولادي بعد أن عرفته!

نعم. ما زلت أشعر بأني لم أحب شخصاً سواه كما أحببته!

○

... انتهى ...

فوضى المشاعر = Le confusion des sentiments / تأليف ستيفان زفايغ؛ ترجمة ميشيل واكيم، قصي أتاسي. ـ ط. ١. ـ دمشق: دار طلاس، ١٩٨٨. ـ ٢٠٨ ص. ؛ ١٨ سم.

١ ـ ٨٣٣ نس زف ا ف ٢ ـ العنوان ٣ ـ زفايغ
٤ ـ واكيم ٥ ـ أتاسي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ١٠٥/٢/١٩٨٨

رقم الإصدار ٣٢٤

